



جامعة جنوب الوادي

مقرر

تاريخ أفريقيا الحديث

الفرقة الثانية - عام تاريخ

أستاذ المقرر

د/ آية عبد الوارث سليم

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

العام الجامعي

٢٠٢٤/٢٠٢٣

محتوى الكتاب

الصفحة	أولاً الموضوعات
	الفصل الأول: كشف أفريقيا في التاريخ الحديث
	أولاً: عوامل تأخر كشف أفريقيا
	ثانياً: النشاط الكشفي للمصريين القدماء والعرب
	ثالثاً: الإسلام في القارة الإفريقية.
	الفصل الثاني: دوافع الاستعمار الأوروبي في أفريقيا في العصر الحديث
	أولاً: تعريف الأستعمار.
	ثانياً: دوافع الاستعمار الأوروبي.
	الفصل الثالث: الكشوف البرتغالية للقارة الأفريقية
	- دوافع الاستعمار البرتغالي
	- رحلات البرتغال الكشفية
	(رحلة هنرى الملاح- ديجو كم- بارثليميودياز- بدرو دى كوفيلهام- فاسكوداجاما)
	- البرتغاليين على سواحل أفريقيا.
	- النظام البرتغالي فى الكونغو وأنجولا.
	- النظام البرتغالي فى موزمبيق وشرق أفريقيا.
	الفصل الرابع: التنافس الأوروبي على قارة أفريقيا
	- الشركات الستعمارية الأوروبية.

١- الإسبانيون

٢- البرتغاليون والإنجليز والفرنسيون

٣- الشركات الهولندية

٤- الشركات الأنجليزية

٥- الشركات الفرنسية

الفصل الخامس: مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ م

- الأوضاع الدولية فى الفترة السابقة لانعقاد المؤتمر

- نشاط الدول الأوربية فى أفريقيا قبل انعقاد المؤتمر

- تطور مشكلة الكونغو قبل عقد مؤتمر برلين

- مؤتمر برلين وما دار فى جلساته

- الاتفاقات الجانبية على هامش المؤتمر

- أثر مؤتمر برلين على الخريطة السياسية لأفريقيا.

- التطورات التى مريها حوض الكونغو بعد مؤتمر برلين

- نظام الحكم البلجيكى فى الكونغو.

- الفصل السادس: تجارة الرقيق

- بريطانيا وتجارة الرقيق

- حركة المطالبة بإلغاء الرق

- الجهود الأفريقية لإلغاء الرقيق

- أثر إلغاء الرق على المجتمعات الأفريقية

ثانياً: الأشكال والصور

شكل ١: خريطة إفريقيا بين عامي ١٥٠٠-١٧٨٨م

شكل ٢: خريطة لطرق انتشار الإسلام في إفريقيا

شكل ٣: خريطة إفريقيا في منتصف القرن التاسع عشر

شكل ٤: خريطة إفريقيا في أواخر القرن ١٩م

شكل ٥: خريطة الاستعمار الأوروبي في إفريقيا عام ١٩١٤

ثالثاً: المصادر والمراجع

رابعاً: روابط الفيديو

فيديو ١

<https://www.youtube.com/watch?v=2GkShGpDaak>

فيديو ٢

<https://www.youtube.com/watch?v=KEP8RnR2gi0>

الفصل الأول

كشف أفريقيا في العصر الحديث

أولاً: عوامل تأخر كشف أفريقيا

ثانياً: النشاط الكشفي للمصريين القدماء والعرب

ثالثاً: الإسلام في القارة الإفريقية.

أولاً عوامل تأخر كشف أفريقيا:

يرجع تأخر كشف القارة الأفريقية إلى عدة أسباب أهمها الآتى:

أولاً: قصر سواحل القارة بالنسبة لمساحتها:

وبالطبع كلما ازداد ده طول الساحل كلها ما أعطى فرصة أوسع للتغلغل للداخل.

ثانياً: قلة الرؤوس والخلجان وقلة تعاريج السواحل: فإذا قارنا سواحل أفريقيا بسواحل أية قارة أخرى ندرك هذه الحقيقة، وقد ترتب عليها قلة الموانئ الطبيعية، وهذه الموانئ في العادة هي المنافذ التي تطل منها القارة على العالم الخارجي ويمد العالم الخارجي بصره منها للقارة.

ثالثاً: قلة الجزر القريبه من الساحل:

فالجزر يمكن أن تتخذ كمناطق تستقر فيها القوة ثم تنفذ منها بعد ذلك للداخل.

وإذا قارن بين آسيا وأفريقيا من جهة أخرى ندرك ان الجزر الأفريقية قليل وصغير الحجم باستثناء جزيرة مدغشقر وهي رغم اتساعها فإن تيار موزمبيق جعلها منعزل عن اليابس الأفريقي.

وحتى جزر زنجبار، وبمبا، ومافيا التي تواجه الساحل الشرقي- تبعد عن

الساحل بمسافات، فقيمتها كمحطات كبيره للاتصال بالداخل محدوده.

رابعاً: السواحل الافريقية في جملتها ظهيرها فقير: اذا تؤدي المناطق الصحراوية أو شبه صحراوية وغابات كثيفة يصعب اختراقها.

خامساً: قلة اهمية الأنهار الافريقية شرايين تؤدي للداخل:

وذلك لأن الانهار تنتهي إلى البحر بدالات كثيرة الفروع والمستنقعات؛ والسدود

بالإضافة إلى المناطق المائية، وينطبق هذا على معظم الأنهار الأفريقية (الكونغو، والزمبيزي، والنيجر) وحتى النيل الذى اشتهر منذ القدم _ ولكن شهرته كانت فى مجال الري والزراعة أكثر طه كمجرى ملاحى، وهناك عقبات معروفة كالجنادل تعترض مجراه كما أن لغز النيل (سر النيل) وأسباب فيضانه ومنابعة لم تكتشف إلا حديثاً.

سادساً: عوامل مناخية :

فقارة أفريقيا تقع فى المناطق المدارية والاستوائية وهى مناطق غير مشوقة للإنسان

الأوربي ليطرقها أو ليعيش فيها .

سابعاً: الأمراض الأفريقية :

وهى الأمراض التى كانت منتشرة بالقارة مثل الملاريا، ومرض النوم ولم تكن قد

كشفت وسائل حاسمة لعلاجها .

ثامناً: اهتمام الدول الأوروبية

حتى حين وضعت أقدامها على المناطق الساحلية أو القريبة من سواحل القارة لم يكن موجها للقارة وما بداخلها - لكن كانت الأنظار متجهة للشرق ومنتجاته فطلت مناطق الاستقرار الأوربي بالقارة مجرد محطات للسفن أو مراكز تجميع للسلع الأفريقية وأدى ذلك لتأخر كشف داخل القارة .

تاسعاً: الأفريقيون أنفسهم وقفوا فى وجه الأوروبيين وقاوموهم لأنهم لم يعرفوهم إلا كمستعمرين أو تجار رقيق .

أما بالنسبة للسواحل الأفريقية فهي كالتالى:

١- الساحل الشمالي:

هو الساحل المواجه لأوروبا وقد قامت به حضارات من أقدم الحضارات التى عرفها الإنسان مثل الحضارة الفينيقية والحضارة الفرعونية وحضارة قرطاجة - لكن اتجاه هذا الساحل كان للبحر المتوسط والدول الأوروبية والأسبوية المطلة على هذا البحر .
والصحراء الكبرى اى الواقعة جنوب الساحل الشمالى كانت حاجزا طبيعياً حال فى كثير من الأحيان دون وصول مؤثرات البحر المتوسط إلى داخل القارة - ولذا فكثيرون من الكتاب الأجانب يعتبرون أن أفر يقيا تبدأ جنوب الصحراء الكبرى .

٢- الساحل الغربى :

أقرب لأوروبا من غيره وقد وصل إليه الأوروبيون فعلا فى أواخر القرن الخامس عشر - لكن أقتصر الأمر على نقط ساحلية فقط فحسب وذلك لأسباب منها:
أ) نظر الأوروبيون كما قلنا لأفريقيا على انها وسيلة لتحقيق حلمهم فى الوصول إلى الشرق وتجارته فحسب، وقد حقت لهم الحصون التى اسسوها على الساحل هذا الهدف .
ب) الجزر القريبه من هذا الساحل مثل (جزر كناريا) قليلة الأهمية لاكتشاف داخل القارة لانها تقابل الصحراء وكذلك توجد جزر اخرى قرب الساحل الغربى للقارة مواجهة الأقاليم الاستوائية من القارة .

ج) الموانئ الطبيعية فى هذا الساحل قليلة .

د) الانهار فى هذا الساحل لا تسهل مهمة الوصول الداخلى .

وأهم هذه الأنهار نهر النيجر - لكنه لا يؤدي الى داخل القارة فهو يتجه شمالا ثم يأخذ اتجاه الشمال غربيا ثم جنوبيا غربيا .

والاورنج سريع الجريان - في فصل الأمطار كما تتعرض مياهه في مجراه الأدنى للجفاف اول للتسرب في الكثبان الرملية.

والسنغال يوجد حواجز رملية أمام مصبه تعترض الملاحة فيه.

هـ) الساحل الغربي من الناحية المناخية استوائي صحراوي وقد أطلق الأوروبيون على ساحل غانا (مقبرة الرجل الأبيض) لانتشار الأمراض فيه.

٣- الساحل الجنوبي :

بعيد إلى حد ما عن أوروبا كما أن الهضبة في جنوب أفريقيا مرتفعة وقريبة من الساحل .

٤ - الساحل الشرقي :

هذا الساحل يطل على البحر الأحمر والمحيط الهندي، وكان البحر الأحمر همزة وصل بين آسيا وأفريقيا _ لكن رغم أن الساحل الشرقي لأفريقيا به بعض الموانئ الصالحة، وبعض الجزر القريبة من الساحل مثل زنجبار، وبمبا، بالإضافة إلى أنه من الناحية المناخية أكثر ملاءمة من الساحل الغربي - فهو بعيد إلى حد ما عن أوروبا وكان الطريق إليه مجهولاً للأوروبيين، كما أن (المماليك) في مصر والحجاز كانوا يتحكمون في الطريق الملاحى بين الشرق وأوروبا ويحرمون دخول السفن الأوروبية مياه البحر الأحمر.

ثانيا: النشاط الكشفي للمصريين القدماء والعرب للقارة الأفريقية

رغم أن معرفة الأوروبيين لما في داخل القارة الأفريقية كانت متأخرة و ترجع للعصر الحديث _ إلى أننا نشير إلى أن المصريين القدماء وكذلك العرب كانت لهم معرفة باجزاء من القارة قبل الأوروبيين.

_١- تدل بعض بعض النقوش والآثار على أنه كانت بين مصر وبلاد النوبة الواقعة جنوبا علاقات منذ فجر التاريخ، ومنذ عصر الدولة القديمة في مصر (٣٠٠ ق.م) بدأنا نجد اسم (بلاد النوبة) بكثرة على الآثار المصرية.

ونستدل من هذه الآثار على تعدد رحلات المصريين القدماء نحو الجنوب في عهد الدولة القديمة، وأن المصريين القدماء اسهموا في هذا الوقت المبكر في تنظيم طرق الاتصال ببلاد النوبة سواء عن طريق البحر في الدروب الصحراويه مارين بالواحات ، او

عن طريق النيل فقد حفروا القنوات للتغلب على العقبات الطبيعية في منطقة الجنادل الواقعة جنوبي أسوان.

ومن أهم مظاهر هذه الصلات بين مصر وبلاد النوبة انتشار المعابد والمعتقدات المصرية في هذه البلاد. وحين أدى الانقسام والخلافات على العرش في اواخر الاسرة العشرين لتدهور الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في مصر_ هاجر عدد كبير من المصريين للجنوب واستقر كثيرون منهم قرب الشلال الرابع وساهموا في قيام مملكة (نباتا النوبية)، وقد نجح أحد ملوكها (بعنخي) في غزو مصر، وخلفتها بعد ذلك في بلاد النوبة مملكة أخرى هي (مملكة مروى).

٢- وكذلك ثبت من النقوش أنه في عصر الدولة القديمة في مصر كانت هناك علاقات تجارية بين المصريين وبين سكان الأقاليم المطلة على البحر الاحمر، وقد ازدادت هذه العلاقات في عصر الدولة الحديثة.

ويذكر في هذا المجال بعثة (الملكة حتشبسوت) من ملوك الأسرة الثامنة عشر لبلاد بنت (إرتريا، والصومال) والتي سجلت صورها على معبد الدير البحري بالأقصر بمصر.

٣- وقد ذكر المؤرخ هيرودوت الذي زار مصر عام ٤٥٧ ق.م _ أن احد الفراعنة المصريين (نيخاو الثاني) أرسل في القرن السادس قبل الميلاد جماعة من الفينيقيين اتجهوا في البحر الاحمر جنوبا وبعد ان غابوا حوالي ثلاث سنوات عادوا لمصر عن طريق البحر المتوسط_ فإذا صحت روايته فإن هذا يعني أن هذه الرحلة البحرية دارت حول القارة الأفريقية الأمر الذي لم يتحقق للأوروبيين إلا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي بعد اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح.

٤- اهتم الجغرافيون بأمر النيل وتتبع مجراه، فبطلميوس الجغرافي وهو رجل مصري يوناني رسم خريطه للعالم وصف النيل ومجراه حتى مدينة مروى (بين الدامر وشندي) كما وصف نهر العطبرة، والنيلين الأزرق والأبيض وغير ذلك من المعلومات التي ذكر أنه استقاها من مؤلف آخر ضاعت كتاباته.

٥- ويعتقد بعض الباحثين أن هناك تشابهاً واضحاً بين بعض المعتقدات وبعض الآلات والأدوات التي ما زالت موجودة لدى قبائل غرب أفريقيا وبين المعتقدات والآلات التي كانت لدى المصري القديم .

وقد أثار هؤلاء العلماء تساؤلاً هاماً وهو:

هل يدل ذلك على أن الحضارة الفرعونية وصلت تأثيراتها بطريقة ما إلى غرب أفريقيا وأن ما نلاحظه اليوم هو من بقايا هذه التأثيرات (بحث هام للأستاذ- الدكتور عبد المنعم أبو بكر).

٦- كذلك هناك اتجاه يميل لترجيح أن بعض الآثار التي عثر عليها في زيمبابوي (رودسيا الجنوبية سابقاً) ترجع إلى تأثيرات فرعونية.

هذا وأشار إلى أن المصريين سيلعبون في العصر الحديث خاصة في عصر محمد علي وإسماعيل دوراً آخر في الكشف عن منابع النيل والأقاليم الواقعة على ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندي التي أمتد إليها نشاطهم في عهد إسماعيل فوصفوها وعمروها .

أما عن معرفة العرب بأفريقيا ونشاطهم فيها :

فقد كان للعرب دور فعال ونشاط كبير في شمال القارة بالذات، وفي سواحلها الشرقية والمناطق الواقعة خلف هذه السواحل هذا بالإضافة إلى مساهمتهم في الكشوف الأوروبية الحديثة كرواد وأدلاء للمستكشفين الأوروبيين ، كما أن بعض الرحالة العرب كانت لهم رحلات وجولات زاروا فيها مناطق مخلفة من القارة .

١- ففيمما يتعلق بالساحل الأفريقي الشرقي فقد جاء العرب في وقت مبكر من شبه الجزيرة العربية من إمارة (عمان) خاصة إلى الساحل الأفريقي الشرقي المواجه لبلادهم ، فهم كما عبر عن ذلك كوبلاند (Coupland) _ الجيران لسكان شرق أفريقيا (next door neighbors).

فكان لابد أن يمدوا نشاطهم وتجارتهم وحاضرتهم إلى سواحل إفريقيا الشرقية المواجهة لهم.

وبالإضافة إلى الجوار هناك عامل جغرافي يتمثل في هبوب الرياح التجارية الشمالية الشرقية في ديسمبر ، ويستمر هبوبها بانتظام حتى نهاية فبراير ، ثم ينعكس الأمر فمن إبريل تهب رياح شديدة من الجنوب الغربي ، وهكذا أصبح التجار العرب ينظمون رحلاتهم للساحل الأفريقي المقابل لهم حسب مواسم الرياح المنتظمة المعروفة لهم .

واستقر بعض العرب في الساحل الأفريقي المقابل لشبه الجزيرة العربية ليكونوا حلقة اتصال بين إخوانهم في شبه الجزيرة وبين الأفارقة ، وانتشر النفوذ العربي بعد ذلك في شرق

القارة ، ثم توغلو للداخل ، وترتب على هذا في النهاية تكوين (إمارات عربية) على الساحل الشرقي وهذه الإمارات أصبحت تمارس فيها بعض الأنظمة والعادات الأفريقية الأصلية بالإضافة إلى عادات وأنظمة وتقاليد عربية ، وتمثل هذا الامتزاج بين الأشياء الأفريقية والعربية في (اللغة السواحيلية) وهي لغة تحتوى على العديد من الألفاظ والتأثيرات العربية .

وقد زار ابن بطوطة بعض هذه الإمارات العربية في عام ١٣٣٣م ودهش لما كانت عليه مدن كلوه . ، وممبسة ، ومالندى ، وبمبا ، وزنجبار ، ومقديشيو من تنظيم ورخاء وحضارة .

كما أشاد الرحالة الأوروبيون الذين وفدوا لهذه الجهات بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح بما لمسوه من حضارة في هذه الجهات ، فشهد فاسكودا جاما بما وجدته في موزمبيق وغيرها مدن أفريقيا الشرقية من تقدم وتحضر ، ووصف الحربية ومنازلهم المؤثثة بالأثاث الفاخر .

كما شهد دورات بربوسا (Durate Barbosa) نفس الشهادة عند زيارته لكلوه ، وممبسة ث ومالندى . ويعلق كوبلاند على ذلك على الرغم من أنه كاتب استعماري بريطاني بقوله : " إن الأمر لا يدعو للدهشة فإن العرب كانوا في ذلك الوقت حملة لواء الحضارة ، فلا شك في أن مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك في أكسفورد او في أية مدينة مسيحية أخرى "

٢- وبعد فتح مصر مد العرب نشاطهم غربا إلى شمال أفريقيا بل ومنها إلى شبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) وهكذا أصبح الشمال الأفريقي يمثل الجناح الغربي للعالم العربي .

٣- وكان لعرب الأندلس والمغرب نشاط كبير في غرب أفريقيا ، وترتب على ذلك أنهم توغلو في داخل القارة ونشروا الإسلام في أقاليم السودان بمعناه الجغرافي الواسع ، وأدى لظهور إمبراطوريات إسلامية عظيمة لها حضارتها وتاريخها ونظامها في الحكم والإدارة ، وقد استمرت هذه الإمبراطوريات حتى بداية عهد أفريقيا بالاستعمار الأوروبي مثل إمبراطورية مالي ث وسنغاي ، وغانا .

٤- وقد كانت قوافل التجارة ، وقوافل الحجاج تخترق القارة من شمالها إلى داخل القارة ومن غربها إلى الشرق في الطريف صوب الحجاز .

٥- ومن الرحالة العرب الذين قاموا بجولات في أفريقيا _ الرحالة المغربي الحسن بن الوزان الذى اشتهر باسم (ليو الأفريقي)، وقد زار عدة مناطق في غرب أفريقيا، فزار مملكة مالي،

وسنغاي ، وبورنو، وبلاد الهوسا بشمال نيجيريا .

ونشرت رحالانه ومشاهداته فى كتاب باسم (تاريخ وصف أفريقيا) ، وقد ترجم هذا الكتاب لعدة لغات.

ويقول بوفيل: (Bovill) الذى ألف كتاباً هاماً عن تاريخ غرب أفريقيا.

" قبل قدوم الحرب إلى شمال وغرب أفريقيا لم يكن يعرف الكثير عن أفريقيا جنوبى بلاد المغرب، فنحن ندين بمعلوماتنا عن التاريخ المبكر لهذه الجهات إلى فئة قليلة من المؤلفين والرحالة العرب من أمثال المسعودى، و ابن حوقل، والبكرى، والإدريسى، وياقوت ، والعمري، وابن بطوطة ، وابن خلدون»

٦- أما جهود العرب حين بدأت الكشوف الأوروبية الحديثة فتتمثل فى الدور الذى لعبوه كرواد ومرشدين للحملات الكشفية .

ورغم أن كثيرين من المستكشفين والكتاب الأوروبيين تجاهلوا عن عمد أو عن غير قصد - ذكر دور هؤلاء العرب فى الكشف عن خبايا القارة _ فلا شك فى أنه لولاهم لما وصل هؤلاء الأوروبيون فى الكشف إلى المناطق التى وصلوا إليها، ولما حققوه من النتائج.

وسنشير إلى بعض هؤلاء العرب من أمثال محمد بن حميد البرجى (تيبوتيب) الذى ساهم مساهمة كبيرة مع الرحالة ستانلى فى كشف نهر الكونغو.

وذلك فيما بعد عند الحديث عن هذه الكشوف الجغرافية.

ثالثاً: انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية.

انتشار الإسلام والممالك الإسلامية

دخول الإسلام فى أفريقيا :

علاقة العرب بأفريقيا علاقة قديمة ، فقد جاء العرب من شبه الجزيرة العربية إلى الساحل الشرقى لأفريقيا واستقروا فى هذه المناطق وأصبحت لهم تجارة زاخرة ، وكونوا إمارات عربية فى

شرق أفريقيا ، وإذا علمنا أن المسافة بين زنجبار وعدن لا تتجاوز ١,٧٠٠ ميل وبين زنجبار ومسقط ٢,٢٠٠ ميل تقريباً ، أدركنا الامتداد العربي لهذه الجهات الأفريقية.

وبالإضافة إلى عامل الجوار - فهناك عامل جغرافي متاخي آخر ساهم في قيام هذه العلاقات بين العرب القاطنين في الجزيرة العربية ، وبين سكان السواحل الشرقية الأفريقية ، حيث أصبح التجار العرب يبدأون رحلتهم في سفنهم الشراعية من الشاطئ العربي في الشتاء يستعينون بقوة الرياح المؤتية في سفرهم جنوباً صوب الساحل الأفريقي ، وفي الربيع أثناء عودتهم يجدون أيضاً الرياح مؤتية للاتجاه صوب الوطن الأصلي فيساعدتهم ذلك على الانتقال من الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر إلى الشاطئ الغربي والعكس.

ومن الأسباب أيضاً التي دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم (العمانيون والحضارمة خاصة أنهم نشأوا في بيئة بحرية مثالية في جنوب شبه الجزيرة العربية) ظهيرها طارد ، فكان طبيعياً أن يتسللوا إلى شرق أفريقيا في مجموعات صغيرة انتشرت في المبدأ في بعض الجزر الساحلية مثل: مافيا وزنجبار وبمبا وفي المراكز الساحلية مثل سفالة ومالندي وكلوة وممبسة ودار السلام.

واستطاعت هذه المجموعات أن تطبع مناطق واسعة من شرق القارة بلغتها وحضارتها و أن تندمج في السكان الأصليين.

لا شك أن الاستقرار العربي على الساحل الأفريقي المقابل لشبه الجزيرة العربية حدث بهدوء ودون اللجوء للقوة أو العنف، وكان الغرض التجاري هو الغالب على هذه الجماعات العربية المهاجرة للسواحل الأفريقية.

ولما ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية وجهر النبي بالدعوة أعطى للعرب دفعة قوية للخروج من شبه جزيرتهم لنشر الدين الجديد ، ومن الطبيعي أن تكون المناطق التي حرقوها وتعاملوا مع أهلها من أول المناطق التي الطلق إليها العرب المسلمون وأصبح التجار المسلمون دعاة الإسلام في شرق أفريقيا ، كما سيكون لهم دورهم أيضاً في غرب القارة ، وكانت سلوكهم وأمانتهم ومعاملتهم حسب تعاليم الإسلام - خير مشجع للأفارقة لاعتناق الدين الجديد الذي

يدعو للمساواة بين الناس ولا يفرق بينهم إلا على أساس التقوى ، كما يدعو للأمانة ومراعاة الله في الكيل والوزن وتحديد الربح.

أن هجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا واستقرارهم وما تبع ذلك من إندماجهم في السكان الأصليين وتزواجهم معهم ، ترتبت عليه نتائج هامة وعميقة مثل وجود جنس تبدو فيه كثير من الصفات والعادات والتقاليد العربية بالإضافة إلى الصفات والتقاليد الأفريقية، كما أصبحت الإمارات التي كونها المسلمون شرق أفريقيا مزيجاً تجمع في أنظمتها بين أشياء أفريقية وبين أشياء إسلامية ، وحتى اللغة السائدة أصبحت لغة أفريقية عربية (اللغة السواحلية ولاشك أن الإسلام بتعاليمه ومبادئه كان يمثل مصدر إشعاع قوي ، والمسلمون المهاجرون لشرق أفريقيا ، لم يعمدوا لتغيير أوضاع وتقاليد الجماعات التي استقروا بينها واندمجوا فيها في أفريقيا ونقلوا لهذه الجهات حضارتهم.

أما عن الطرق التي سلكها الإسلام في انتشاره في أفريقيا :

١ - طريق المحيط الهندي : وهو طريق العرب الأساسي من شبه الجزيرة العربية إلى شرق القارة وكما سبقت الإشارة أن العامل الجغرافي وعامل الجوار يسرا هجرة العرب من شبه الجزيرة العربية عبر هذا الطريق إلى شرق القارة.

٢ باب المنذب : وهو مدخل طبيعي للمناطق المقابلة له من شرق القارة وقد سلكه العرب قبل الإسلام وبعده إلى داخل القارة، والمحيط الهندي وباب المنذب كانا طريقا المسلمين إلى الحبشة القريبة من باب المنذب حيث أمر الرسول ﷺ أتباعه بالهجرة إلى الحبشة حين اشتد بهم الأذى ، كما دخل الإسلام عن هذا الطريق إلى الصومال فأصبح دولة إسلامية ، كما امتد إلى كينيا وتنزانيا الحاليتين ، ووصل الإسلام إلى أعالي الكونغو حيث استطاع حميد بن محمد المرجي الذي اشتهر باسم تبوتيب Tippu tip تكوين دولة عربية كانت عاصمتها كاسونجو ظل يحكمها حتى عام ١٨٩٠ .

٣- البحر الأحمر : بعد الإسلام أصبح البحر الأحمر يمثل طريقاً هاماً للحج للمسلمين الأفارقة ، وقامت على الشاطئ الأفريقي لهذا البحر موانئ هامة باعتبارها مناطق تجمع الحجاج في طريقهم للأماكن المقدسة الإسلامية بالجزيرة العربية ، وتطورت أهمية البحر الأحمر فقد أصبحت

بعض موانيه محطات هامة على الطريق الملاحي الذي يصل المحيط الهندي بعالم البحر المتوسط خاصة بعد شق قناة السويس.

٤- شبه جزيرة سيناء : سيناء معبر يربط آسيا بأفريقيا ولعبت شبه جزيرة سيناء دوراً هاماً كطريق الهجرة القبائل العربية إلى شمال وغرب أفريقيا ، ومن أهم الهجرات التي سلكت هذا الطريق هجرة بني هلال وبني سليم ، وقد استقرت بعض القبائل العربية المسلمة في سيناء كما أن بعضها اتخذها معبراً إلى الغرب ، وقد دفعت هذه القبائل العربية أمامها قبائل بريرية إلى الجنوب والغرب كما أن سيناء تعتبر الطريق البري الوحيد الذي يربط بين الجناح الأفريقي والجناح الآسيوي.

٥ - مصر كقاعدة للانطلاق الإسلامي في أفريقيا منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودخول مصر في حوزة الأمة الإسلامية ومن مصر انطلق المسلمون في اتجاهين هامين :

أ- اتجاه جنوبي إلى بلاد النوبة وسودان وادي النيل وإلى الجنوب الشرقي إلى اريتريا

ب- اتجاه غربي ساحلي إلى برقة وطرابلس والمغرب، وكان تأسيس عقبة بن نافع مدينة القيروان عام ٥٠ هـ خطوة هامة في هذا الاتجاه.

٦- المغرب: كقاعدة لانطلاق الإسلام في أفريقيا : فمنذ دخول الإسلام المغرب بدأ يتسرب إلى غرب أفريقيا فقد سار عقبة بن نافع الفهري حتى ساحل المحيط ، وسار موسى بن نصير في نفس الطريق، فانفتح الباب للإسلام صوب الغرب وجنوباً إلى قلب القارة التي أطلق عليها الأوربيون تعبير القارة السمراء وكان هذا أول اتصال بين الإسلام القادم من المغرب وبين أقاليم غرب أفريقيا ، وتتابعت بعد ذلك هجرات البربر ، ولعل من أبرز القبائل التي لعبت دوراً حاسماً في نشر الإسلام في هذه الجهات قبائل الملتمين (الطوارق) خاصة في منطقة السنغال والنيجر.

الممالك الإسلامية :-

دخل في حظيرة الإسلام - العديد من قبائل الصحراء الغربية ، وقامت في السودان الغربي ممالك (إمبراطوريات) إسلامية قوية - فقد انتشر الإسلام في البلاد التي يرويها نهر السنغال والنيجر .

١ - انتشار الإسلام في السنغال :

بدأ الإسلام ينتشر في بلاد السنغال منذ أن أقبلت عليه قبائل تلك الديار خاصة قبيلة صنهاجة التي انتشر فيها الإسلام منذ أيام عقبة بن نافع فكانت هذه القبائل تنتقل نحو الجنوب ، وينتقل معها الإسلام، وزاد أيام دولة الأدارسة التي قامت عام ١٧٢هـ إذ انضوت ديار الملثمين بزعامة المتونة) وبدأت تنتج نحو الجنوب ، وساعدها في هذا الاتجاه ضعف دولة (غانا) آنذاك ، كما كان خط الانتشار يتجه نحو الغرب ، حيث كانت عدة ممالك في المنطقة أشهرها : مملكة (بامبوك) ومملكة (التكرور) وهذه الأخيرة اعتنق ملكها الإسلام حوالي عام ١٤١٦هـ.

وانطلقت دولة المرابطين من جزيرة عند مصب نهر السنغال ، وهاجمت القبائل المجاورة ، وأرغمتهم على الإسلام، وتوسعت الدولة حتى قضت على دولة غانا ، ونشرت الإسلام بين قبائل الزنوج الوثنية ، ومن هذه القبائل الفولاني التي تحولت إلى الإسلام حوالي عام ٤٦٩ هـ في منطقة السنغال.

ومن أوائل القرن السابع الهجري وحتى القرن الحادي عشر الهجري كانت أرض السنغال ضمن مملكة مالي الإسلامية ، وإن كانت قبيلة "التوكور" هي صاحبة النفوذ في منطقة السنغال تحت إشراف مملكة مالي حتى عام ٦٣٩ هـ ، حيث حكم الفولانيون الذين جاءوا من كانياغا) حتى عام ٧٥١ هـ ، وتلاههم شعب الولوف الذي استمر حكمه حتى القرن التاسع حيث رجع التوكور إلى الحكم وقوى مركزهم إذ كانت مملكة مالي آخذة بالضعف، وكانت هذه الحكومة كلها تقوم تحت إشرافها ، وفي عام ١١٩٠ هـ ، (١٧٧٥م) أسس الفولاني حكومة اتسعت رقعتها ، وظهر عام ١٢٥٤ هـ (١٢٣٨م) الحاج عمر الفولاني فحاول التوجه نحو الغرب ولكنه اصطدم بالفرنسيين ، وتمكنوا من القضاء على سلطانه عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥م) ، وإن استمر حكم أبنائه حتى عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨م) حيث دخل الفرنسيون البلاد ولما انتهت إمبراطورية غانا الإسلامية قامت على أثارها إمبراطورية أخرى هي دولة مالي التي ساعدت على نشر الإسلام وحضارته ، وذهب ملوكها إلى بيت الله الحرام وسط مظاهرة كبيرة ، وطافوا ببلاد إسلامية في رحلتهم حاملين معهم الإسلام في كل مكان حلوا به، ولا ننسى موكب منسي موسى (١٣٠٧ - ١٣٣٢م) ذلك الموكب الذي مر على مصر عام ١٣٢٤م ، وأصبح هذا السلطان من دعاة الإسلام حيث امتد بدولته إلى مدينة جاو في النيجر ، بل اخترق الصحراء وتوغل في المنطقة

الاستوائية جنوبياً ، لكن انتهت هذه الدولة الإسلامية لتقوم على أنقاضها دولة أخرى هي دولة صنعاء والتي حملت أيضاً لواء الإسلام وتوسعت جنوباً ، ولولا الغزو المغربي لها في أواخر القرن السادس عشر لكان لهذه الدولة شأن كبير في نشر الإسلام في بلاد الزنوج ، وبعد انتشار الإسلام في هذه الجهات بدأت قبائل الفولاني تقوم بدور كبير في نشر الدين الحنيف ، وصار دور الفولاني لا يقل أهمية عن دور الممالك الإسلامية السابقة ، واختلف المؤرخون حول أصل هذا الشعب ، وانقسموا شيعاً وأحزاباً ، فيرى ديبوي (Dubois) أن الفولاني من البربر وأنهم الحدروا من منطقة أدرار شمال ديبوي السنغال ، واندفعوا إلى السودان الغربي بعد طرد المسلمين من الأندلس ، واشتغلوا بالزراعة والرعي.

أن الفولاني قد انتشروا بالتدريج في السودان المغربي وأعالي السنغال خلال ازدهار إمبراطورية غانا ، وأنهم شقوا طريقهم إلى بلاد الهوسا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ، وصاروا قوة مهيمنة بعد نجاح حركة الجهاد الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودي عام ١٨٠٤.

ومهما اختلفت الآراء حول أصل الشعب الفولاني فإن الذي يهمنا هو أن هذا الشعب ، بعد تفكك دولة صنغي ساد منطقة السودان الغربي فترة من الفوضى استمرت حوالي قرنين من الزمان تعرض فيها السودان لكثير من ألوان الاضطهاد حتى نهض الفولاني بثورتهم الكبرى مع إشراقة القرن التاسع عشر.

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر استطاعت إحدى إمارات الهوسا ، وتدعي إمارة جوبير ، أن تنتزع السيادة من إمارة زمفرا ، وصارعت إمارات أخرى مثل كيببي ، وكاتسينا وكانم وامتدت جيوشها حتى دولة برنو ورغم كل هذا التوسع لم تستطع أن تحقق الوحدة السياسية للإمارات الهوسا لأن كل إمارة تحاول السيادة على غيرها وكل ما فعلته إمارة جوبير هو السيطرة إلى حين على الإمارات الأخرى.

إن الصراع بين إمارات بلاد الهوسا لم يساعد إلا على التفرقة وعدم الاستقرار ، وعدم التركيز على النواحي الثقافية أو الدينية ، فصار الدين الإسلامي غريباً بين السكان ، واختلطت العادات الوثنية بالتقاليد الإسلامية ، وصار الحكام يحملون لقب المسلمين شكلاً دون فهم واع لأصول هذا

الدين وعندما أحس أحد أبناء الفولاني المسلمين بما ألم بالدين على أيدي هؤلاء الحكام شبه الوثنيين أعلن الجهاد في سبيل الله لإعادة الدين الإسلامي إلى أصوله وقواعده، وصارت إمارة جوبير هي التي انطلقت منها هذه الثورة الإسلامية الكبرى التي غيرت مجرى حياة السكان، وأعدت للدين الإسلامي هناك مكانة لم يحققها في القرون السابقة ، وصار الجهاد الفولاني لإخماد البدعة وإحياء السنة هو العمل الكبير الذي قام به الداعية والمجاهد عثمان بن فودي.

إعلان الجهاد وبداية تأسيس الدولة الإسلامية :-

كانت الهجرة إلى مدينة جودو بداية تأسيس إمبراطورية الفولاني التي اتخذت من مدينة سوكوتو عاصمة لها ، وأخذ الشيخ معه الأنصار والأتباع إلى أطراف الصحراء ، وهناك أقروا له بالطاعة والولاء ، وحلفوا اليمين على طاعته على الكتاب والسنة ، وحمل الشيخ لقب أمير المؤمنين ذلك اللقب الذي استمر مع الخلافة حتى نهايتها في عام ١٩٠٣ كما حمل لقب خليفة في بعض الأحيان وهو اللقب الذي حمله أبناؤه وذريته من بعده.

كانت هذه البيعة بداية الجهاد، وإيذاناً بتأسيس الخلافة الإسلامية ، ذلك لأن البيعة كانت تعني نقل الجهاد من الدور السلبي إلى الدور الإيجابي الجديد ، وانتشرت أخبار الجهاد ضد حكام الهوسا ، وأصدر الشيخ وثيقة أهل السودان التي صارت إعلاناً رسمياً للجهاد ، حيث حدد الشيخ الأسس التي بني عليها الجهاد ، وأقرت هذه الوثيقة مبادئ منها : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إجماعاً ، وأن الهجرة من بلاد الكفار ولجية إجماعاً ، وأن الجهاد واجب إجماعاً ، وأن قال البغاة واجب إجماعاً.

كان الرد العملي على هذه الوثيقة أن أرسل إلى إخوانه الأمراء في كاتسينا ، وكانم ، ودوراً يطلب منهم يد المساعدة لأنه أهمل إطفاء شرارة من النار في إمارته حتى اتسعت رقعتها وزادت حدتها ، وصار فوق احتمالها القضاء على خطورتها.

تزعّم سلطان جوبير جبهة المعارضة ضد الشيخ عثمان ، وصارت الحرب وشيكة بين المؤمنين والوثنيين ، ولم يجد الشيخ بدأً من إعلان الجهاد في سبيل الله ، فلبى تلاميذه النداء لأن ارتباطهم به لم يكن مجرد حلقات درس تنتهي ، بل كان الارتباط عميقاً بالحب والتقدير ، فكانوا له مؤيدين ، تكبدوا المعاناة وتحملوا عبء الكفاح عندما هاجم الشيخ إمارة جوبير إثر قرار

حاكمها بتأديب الشيخ عثمان ، فحدث الالتحام وبدأت الحرب وانتقلت الدعوة من مرحلة السلم إلى مرحلة الهجوم المسلح ، وبعد أن أغار حاكم جويبر على قرى المسلمين وممتلكات الموحدين .

وفي الرابع من يونيو عام ١٨٠٤ تقدمت قوات الجهاد بزعامة عبد الله بن فودي الذي أدخل مواقعه في جودو توقعاً لهجوم من سلطان جويبر ، واتجه إلى بحيرة تابكين كوتو ، وعلى ضفاف هذه البحيرة أطبق المسلمون على قوات البغي والعدوان ودارت عليها الدائرة ، فهرب من وجد سبيلاً لذلك وسقط في ساحة المعركة الكثير ، وتفرق شمل الأعداء في أول مواجهة حاسمة في الجهاد، لكن النصر لم يكن نهائياً لأن قوات المشركين عادت ، بعد أن جمعت قواتها في ١٨٠٥ ، وبدأت الهجوم من جديد على الشيخ وجماعته، ودارت معركة تسونسو التي هزم فيها المسلمون في البداية ، وراح منهم أكثر من ألف قتيل ولكنهم صمدوا للهجوم .

استمرت الحرب سجالاتاً بين الطرفين دون تفوق على الآخر ، وتمكنت قوات الجهاد من السيطرة على إمارة كيببي (Kebbi) واتخذتها عاصمة للجهاد، وتوالي سقوط إمارات الهوسا في أيدي المسلمين حيث سقطت زاريا عام ١٨٠٥ ، واستمر النصر حليفاً للشيخ وأتباعه حتى تحقق النصر المبين ، ودخل عاصمة الإمارة وتسمى الكالوا في ١٨٠٨ ، وتم قتل السلطان يونفا مع عدد من أتباعه ، وانتهت مقاومة الوثنيين ، وصارت كلمة الذين آمنوا هي العليا، وتوافدت القبائل زرافات ووحدانا إلى معسكر الشيخ تعلن الدخول في الإسلام والانضمام إلى حلف المسلمين ، وتوسعت إمبراطورية الفولاني ، وتكونت إمارة جديدة ، وأعطى الشيخ أعلاماً لأتباعه الجهاد في مختلف المناطق ، فتوسعت رقعة الدولة ، ودخل الناس تحت راية الجهاد ، وانتقل الشيخ إلى مدينة سفاوا عام ١٨٠٩ ، بينما استقر ابنه محمد بلو في مدينة سوكتو. وعادت المنطقة إلى حكم المسلمين ، ولأول مرة تشكلت وحدة سياسية كبرى أطلق عليها إمبراطورية الفولاني ، واختلفت التفسيرات حول هذا الجهاد فمنهم من رأى فيه صراعاً سياسياً بين الهوسا والفولاني ، استخدم الفولاني عامل الدين كهدف ، أو مناورة عسكرية من أجل تحقيق أهدافهم للسيطرة الفولانية على بلاد الهوسا ، أما العالم النيجيري عبد الله سميث فيرى في الحركة أكثر من محاولة لمجموعة من الرجال المحرومين من أجل السيطرة السياسية لصالحهم، بل هي حركة فكرية تهدف إلى خلق مجتمع مثالي تسوده الشريعة الغراء .

وحاول أعداء الشيخ تفسير الجهاد على أنه جهاد يخفي وراءه أطماعاً سياسية في ثوب الإصلاح الديني ، بل ذهب فريق آخر إلى أن هذه الثورة قد خططت من أجل مساعدة الفولاني للسيطرة على أمور البلاد. لكن مهما اختلفت الآراء حول أسس الجهاد فإن الجميع يتفق على أن الحركة شمولية ارتكزت أساساً على الناحية الدينية، وأن الشيخ عثمان نفسه حدد الغرض من الجهاد في وثيقة أهل السودان وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والهجرة من بلاد الكفار ، وتنفيذ أحكام المشرع ، وقتال الملك الكافر الذي لا يقول "لا إله إلا الله" .

وقامت دولة الفولاني على نظام الخلافة الإسلامية وصار الخليفة يشرف على كل إمارات الدولة التي أحييت الخلافة الإسلامية التي كانت أيام مجد العباسيين ، وتأسلت جذور الدعوة الإسلامية فنمت وترعرعت وأتت أكلها ، وتمسك المسلمون . بالشرعية الغراء وساد الأمن الذي كانت تحكم به المنطقة ، وازدهرت الحضارة الإسلامية في كل أرجاء الإمبراطورية.

وفي عام ١٨١٢ اقتصر دور الشيخ على التأليف والوعظ والإرشاد بعد أن قسم الإمبراطورية إلى قسمين : قسم شرقي تحت إشراف ابنه محمد بلو ، والآخر غربي تحت إشراف أخيه عبد الله فودي، وكرس الشيخ الجزء الباقي من حياته في التأمل والدراسة في مدينة سيفاوا (Sifawa) حتى والفاء الأجل المحتوم في عام ١٨١٧ بعد أن أرسى قواعد دولة إسلامية ، استقرت فيها الخلافة ، وحكم أبناؤه من بعده مدة قرن من الزمان حتى سقوط هذه الخلافة في أيدي البريطانيين في عام ١٩٠٣.

لقد لعب أبناء الشيخ وأحفاده دوراً ضد الاستعمار الأوربي الذي تكالب على مناطق الدولة الإسلامية ابتداء من الربع الأخير للقرن التاسع عشر ، وسوف نستعرض بشيء من التفصيل قصة صراع هذه الدولة الإسلامية ضد الجيوش البريطانية التي حاولت القضاء على هذه الحضارة الإسلامية الزاهرة، لكن رغم سقوط الدولة عسكرياً إلا أن الأسس التي وضعوها ، والنظم الإسلامية التي ساروا عليها أدهشت الأوربيين وجعلتهم عاجزين عن إبدال تلك الحضارة الراسخة بنظم جاءوا بها ، فاضطروا للإبقاء عليها ، ولم يحاولوا التدخل في شئون المسلمين في تلك الدولة الإسلامية ، فعاشت حضارتهم وازدادت إزدهاراً.

في القرن السابع قبل الهجرة قامت إمبراطورية (غانا) في منطقة مالي اليوم ، أسستها جماعة بيضاء جاءت من الشرق أو من الشمال وغدت مع الزمن سوداء ، وهي التي عرفت فيما بعد باسم (الفولانيين) وكان مقرها مدينة (كومبي (صالح) التي تقع بين نهري النيجر والسنغال ، في منطقة (أوكار) وسيطرت على جماعة (السوننكي) أصحاب النفوذ هناك ، واعتمدت في حياتها على الزراعة والتجارة ، وفي القرن الهجري الثاني طردت جماعة (السوننكي) الفولانيين نحو الغرب ، وحكمت (غانا) حتى جاء المرابطون في القرن الخامس الهجري عام ٤٩٦ هـ فانتشر فيها الإسلام ، وكانت من قبل تدين بالوثنية.

تمكنت جماعة السوننكي أن توسع نفوذها وأن تسيطر على مدينة (أود خشت) حاضرة قبيلة (المتونة) إحدى فروع قبيلة (صنهاجة) والتي كانت فيها حكومة بربرية شملت أجزاء واسعة من موريتانيا ، والسنغال ، وغينيا ، ومالي دول العصر الحديث ، وكانت المنطقة بين الممالك تسيطر إحداها على جميعها عندما تزداد قوتها ، ولا تقضي عليها ، وإنما تكتفي بفرض الجزية ، فإذا حدث أن قويت مملكة أخرى عادت وسيطرت على غيرها، وأصبحت الحكومة بالأمس حاکمة اليوم. وقد تعود دولة منها للنهوض ثانية مادام لم يقض عليها ، ولما كانت كل مملكة تسيطر على عدة ممالك لذا فقد عرفت باسم "إمبراطوريات.

٢ - مملكة غانا :

وكانت تشغل الرقعة من الأراضي بغرب أفريقيا التي تقع عقد الطرف الجنوبي لطريق القوافل عبر الصحراء الكبرى الممتدة من سجماسه في بلاد المغرب ماراً بتغازا التي اشتهرت بمناجم الملح. واشتهرت غانا بالذهب ويوجد بمدينة غانا العاصمة نحو إثنا عشر مسجداً ، وأنه عاش بغانا كثير من العلماء ورجال الدين والأدب ، وطلاب العلم وكانت العربية لغة التعامل ليس بين المسلمين فحسب بل وفي جميع أنحاء الإمبراطورية ، وحاضرة غانا هي كومبي.

وقد بدأ الضعف يدب في مملكة غانا منذ عام ١٣٠٣م - حتى استطاع جيش أحد الأقاليم التابعة لها - وهو إقليم صوصو أن يهاجم العاصمة واستولى عليها وضربها حوالي عام ١٣٤٠م - فاضطر مسلمو خانا للقرار إلى (ولاته) شمال كومبي وأصبح هذا المكان الجديد مركزاً للحياة الإسلامية في الصحراء الكبرى . وقد انتشر الإسلام قليلاً في إمبراطورية غانا قبل قدوم

المرابطين بل ذكرت بعض الروايات أن أحد ملوك غانا قد اعتنق الإسلام عام ٣٣٣ هـ ، كما اعتنقه أحد ملوك التكرور عام ٤٣٢ هـ ، ، وأصبح للمسلمين في قاعدة غانا ضاحية خاصة تعادل العاصمة أو تشمل نصفها وفيها اثنا عشر مسجداً ، ولهم حرية في الدولة.

كان القتال مستمراً . بين إمبراطورية غانا والملثمين في الشمال بزعامة قبيلة (المتونة) والذين كانت قاعدتهم مدينة (أودغشت) وتمكنت غانا من إحراز النصر على الملثمين الأمر الذي جعل (المتونة) تتخلى عن الزعامة لأختها (جدالة) التي استطاعت أن توقف زحف إمبراطورية غانا نحو الشمال ، ثم تأسست جماعة المرابطين الأساسية من قبيلة (جدالة) عندما جاء عبد الله بن ياسين إليهم ، وعندما قوى أمرهم تمكنوا من استعادة مدينة (أودغشت) عام ٤٤٦ هـ من غانا ، وحملوا أهلها على اعتناق الإسلام ، إلا أن زعيمهم (يحيى بن إبراهيم الجدالي) قد استشهد في المعركة التي فتحت إثرها مدينة الودهشت) وتولى بعده زعامة المرابطين أبو بكر بن عمر اللمتوني) ابن عمه وزعيم قبيلة (المتونة) وتمكن من دخول قاعدة إمبراطورية غانا مدينة (كومبي صالح) وكانت غانا قد ضعف أمرها ، وتفككت وذلك عام ٤٦٩ هـ ، وفرض اللمتوني الإسلام على سكان غانا.

ثم ضعف أمر المرابطين بعد وفاة أبو بكر بن عمر اللمتوني) عام ٤٨٠ هـ ، فعاد للسوننكي قوتهم فاستقلوا وأعلنوا عن ارتباطهم بالدولة العباسية ، ثم ساد الجفاف المنطقة وارتحلت عدة قبائل نحو الجنوب فانهارت إمبراطورية غانا وقامت مكانها إمبراطورية (الصوصو) وكان لارتحال القبائل نحو الجنوب أثر في تصق الإسلام نحو خليج فانا.

٣- مملكة مالي :

منذ أواسط القرن الحادي عشر كان الإسلام قد أخذ ينتشر بين أفراد الأسرة الحاكمة في مالي وقد اعتنق ملك مالي الإسلام في عام ١٠٥٠م ، وأدى فريضة الحج وتبعه خلفاؤه الواحد تلو الآخر ، ومنذ عام ١٢٣٥ ، بدأ نجم مالي يظهر ، ضمت إليها عدة أقاليم مجاورة. فقد ضمت إقليم مالي ، وصوصو ، وإقليم غانا ، وبلاد تكرر - وكانت هذه الأقاليم ممالك مستقلة لكنها اندمجت في مملكة واحدة ، وأصبحت مالي إمبراطورية إسلامية ضخمة بغرب القارة الأفريقية .

لم تمر خمسون سنة على غزو سوسو لغانا حتى عادت التنظيمات السياسية التي كانت قائمة في إمبراطورية غانا إلى سابق عهدها بل ازدادت اتساعاً وقوة بإضافة أقاليم جديدة عن طريق قيام الأسرة الحاكمة ، وهي من قبائل ماندي Mandi وتعتبر أسرة Sundiata مؤسسة دولة مالي ، وإن كانت قد فعلت ذلك بأسلوب عسكري فإنها في نفس الوقت أبقت على النظام السياسي القائم : بمعنى أن هزيمة غانا في ميدان القتال لم تؤد إلى تقطيع أوصال الإمبراطورية أو إلى تعديل في التركيب الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي للبلاد ، فقد حافظت إمبراطورية مالي على تمتع الشعب بحقوقه وواجباته السياسية ، وعلى قيامه بواجباته وإن تكن قد قضت على الأسرة الحاكمة منعاً لوجود منافسة لها على دست الحكم.

وقد حدثت منازعات داخلية في مالي نتيجة تتابع ثلاثة حكام على الحكم من نفس الأسرة في عشرين سنة ، ثم قيام أحد المماليك بانقلاب ، ثم تنصيب نفسه ملكاً على مالي ، وقد أدى ذلك إلى حرب أهلية لمدة تسعة أشهر ومنازعات على الحكم ، ولكنها لم تؤثر في ولاء رجل الشارع للسلطة الحاكمة ، فقد بقي التركيب المركزي للحكم قوياً بفضل اعتناق الدولة للإسلام.

والواقع أن إمبراطورية مالي كانت أصلاً دويلة صغيرة تسمى كان جايا Kangaba ويسكنها الماندنغو Mandingo من قبائل المالكي Malinke وفي عام ١٣٣٥ قام الملك سندياته Sundiata بضم إمبراطورية سوسو في الشمال إليه ، ثم هزم إمبراطورية غانا ، وقد قامت إمبراطورية مالي الإسلامية على مركزين رئيسيين هما : نياني Niane و Kangaba ثم امتدت إلى تومبكتو Timbuktu وجين Jenne وما حلت سنة ١٤٠٠٠ حتى كانت قوافل التجارة تعبر القسم الأوسط من الصحراء الغربية ، وكانت القافلة الواحدة تتكون من أكثر من ١٣ ألف جمل ، ومن ثم زادت ثروة حكام مالي حتى أصبحت أسطورية ، وخاصة الإمبراطور مانس موسى - Mansa Musa الذي قام بزيارة بيت الله الحرام في عام ١٣٣٤ ، وقد صحب معه آلافاً من رعاياه وكمية كبيرة من الذهب وزعها على الفقراء ، وأحضر مانس موسى Mansa Musa من مكة ومن الدول التي مر بها الفنيين من رجال العمارة ، كما أحضر عدداً من العلماء ، وقد ساعد الأولون في بناء مساجد تومباكتو Timbuktu وقصورها وغيرها من المدن وأنشأ العلماء المسلمون جامعة سان كوري (Sankore) في تومباكتو.

وبعد موت مانس موسى Mansa Musa بدأ نجم الدولة في الأقول ، وما أن حل القرن الخامس عشر حتى فقدت جميع أقاليمها الشرقية بما في ذلك تومبا كتو وجين اللتان انضمتا لإمبراطورية سونغهاي التي حافظت على هاتين المدينتين الكبيرتين ، وعلى ازدهار العلم في جامعة سان كوري تمكن (ماري جاطه) عام ٦٣٣ هـ أن يؤسس جيشاً ، وأن ينتصر على الصوصو ، وأن يدخل عاصمة غانا القديمة ، وأن يزيل ما بقى منها ، ولكنه عطف على المسلمون الذين فروا منها إلى الشمال في ولايته عندما هاجمهم الصوصو .

ان (ماري) (جامه هو اين ناري) (قامغان الذي عرف بالإصلاح والعمل على نشر الإسلام ، والذي قتله الصوصو ، وقد نقل (ماري) جاطه) عاصمته إلى مدينة مالي التي أسسها ، والتي تقع اليوم في غينيا قرب الحدود مع دولة مالي ، وقد توسعت هذه المملكة كثيراً حتى شملت أكثر أجزاء أفريقيا الغربية ، واستمر حكمها حتى عام ٨٩٤ هـ (١٤٨٨ م) وقد ضعف أمرها أمام هجمات الطوارق في الشمال واستيلائهم على مدينة (توميكوتو) وأعمال الغزو التي تقوم بها قبائل (الوش) الوثنية في الجنوب ، وهجمات الفولانيين والتكرانة من الغرب ، ثم استقلال مملكة (صنغاي) على نهر النيجر ، وتوسعها حتى قضت على مملكة مالي إلا أن المالين قد حاولوا استعادة نفوذهم ضد (صنغاي) فاستنجدوا بالعثمانيين عام ٨٨٦ هـ (١٤٨٠ م) وطلبوا المساعدة من البرتغاليين فساعدوهم ضد الفولانيين وأجلوهم عن الأجزاء الغربية ، وقاموا بشورة عام ٩٤٠ هـ ، ضد صنغاي غير أنهم فشلوا وقمعت ثورتهم ، ثم استطاع السلطان (محمد) الثالث أن يستعيد بعض أملاكه ، ولكنه هزم في النهاية عام ١٠٠٠ هـ. (١٥٩١ م) أمام السعديين في مراكش، والذين دخلوا مدينة (توميوكتو) ثم عاد لدولة مالي أهميتها عام ١٠٨١ هـ (١٦٧٠ م) ثم تفرق أمراء الأسرة الواحدة واقتسموا السلطة، واستقر آخريهم في مدينة (باماكو) ومن الأسر التي حكمت مملكة مالي أسرة (كييتا) وأسرة (تراورة).

ومن أشهر حكام مالي السلطان منس موسى ، وقد ذاع صيته في العالم الإسلامي - إذ ارتبط اسمه برحلة الحج الطويلة التي قام بها إلى بيت الله الحرام عام ٧٢١ هـ / ١٣٢٤ م في ركب قيل إنه كان يضم أكثر من عشرة آلاف حاج (فمر بـ دولته) ، و(توات) و (سرته) على شاطئ البحر المتوسط في برقة واتجه منها ساحلاً إلى أن وصل إلى القاهرة - وذلك في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد حسن قلاوون وقد أحاط هذا السلطان نفسه بمظاهر الترف

والإسراف في مصر ، وكانت معه كميات كبيرة من الذهب الخام - حتى قيل أنه لم يدع أميراً من أمراء المماليك في مصر ، ولا رب وظيفة سلطانية إلا وصله بحمل من الذهب ، كما فاض في هباته على الفقراء في الأراضي الحجازية ، ومنح عن سعة حتى قيل أن الذهب انخفض انخفاضاً ملحوظاً لكثرة ما أنفقه.

ومن طريف ما ذكر عن بعثة الحج هذه أن سلطان مالي في طريقه إلى الحج بعث برسالة إلى سلطان المغرب يخبره فيها أن موكبه سيمر من الطريق المحاذي بساحل البحر المتوسط ، فأصدر السلطان المغربي أوامره بحراسة السلطان المالي أثناء اجتيازه الصحراء ، ولبست المملكة حلة الزينة لاستقبال ضيف المغرب الذي أحاطت به مظاهر الأبهة والبذخ وحمل معه أحمالاً من الهدايا قدمت إلى الحضرة بفاس وتركت أثارها في نفوس المغاربة الذين كانوا ينظرون إلى القادمين نظرة الاحترام والتقدير : وعندما انطلق الموكب من مالي إلى تلمسان صحبتته كوكبة من الخيالة المغاربة الذين كانوا يحملون أوامر بمضاعفة مظاهر الحفاوة عند المرور ببجاية وتخوم تونس ، ووصل الموكب مصر حيث وجد الملك المالي - عاهل الجركسي يئاتحه في موضوع إقامة صلات تجارية وسياسية بين البلدين. ولم تكن مظاهر الكرم - الذي صاحب رحلة العاهل المالي للحج مقصورة على القاهرة - فقد أنفق المال بسعة في كل مكان ذهب إليه ، وحدث ذلك أيضاً في أثناء زيارته المدينة المنورة ومكة المكرمة وغيرهما.

وقد ذكر المؤرخون أن منسا موسى - لما رجع ثانية إلى القاهرة قد أنفق كل ماله ، ومع ذلك فقد ظل متمسكاً بجميع مظاهر الأبهة - واضطر للاقتراض من أحد تجار الإسكندرية ، وقد سحب هذا التاجر هو وولده إلى مالي ليسترد دينه ، وقد توفي هذا التاجر الثري في مسوفة ، ودفع منسا موسى ما كان عليه إلى ولده الذي انصرف عائداً إلى مصر.

وقد مات منسا موسى عام ١٣٣٢ بعد حكم دام خمساً وعشرين سنة ، وبعد موته بدأ الانقسام يدب في عظم الإمبراطورية فقد تولى أمرها خلفاء تعوزهم القدرة.

وأن تاريخ منطقة تشاد يكاد يكون مجهولاً حتى المدة التي شع فيها نور الإسلام عن طريق التجارة والدعوة وانتقال القبائل من الشمال إلى الجنوب ، ونزوح بعض الرجالات إثر الأحداث

التي تحل بالعالم الإسلامي مثل : سقوط بغداد وخروج المسلمين من الأندلس وغير ذلك ، ومن ثم تأسست بعض الممالك الإسلامية في تلك الديار أهمها :-

٤ - مملكة كانم :

وتأسست في القرن الثاني الهجري على أيدي جماعة قادمين من الشمال وكان مركز هذه المملكة شمال شرقي بحيرة تشاد ، وحكم أسرة سيف (١٨٣ - ١٢٢٥هـ) كانت على الوثنية مدة من الزمن تعد غامضة في أكثر من مراحلها ثم دخل إليها الإسلام في أواخر القرن الخامس ، وأول الأمراء الذين اعتنقوا الإسلام يدعى (أوم) وحكم من ٤٧٨ - ٤٨٩ هـ) ولقب الملوك بعده (ماي) . وانتشر الإسلام في أيامه كثيراً ، وتوسعت مملكتهم حتى امتدت من النيجر غرباً إلى (وادي) شرقاً ، وشملت مناطق من الصحراء ، وشملت أجزاء من المناطق السودانية في الجنوب ، وكان هذا التوسع بمساعدة حكام تونس من الحفصيين ، ووصلت إلى الأوج أيام عبد الجليل (سلما) و (جونوما (الثاني)).

ومن إمبراطوريات غرب أفريقيا الإسلامية - إمبراطورية كاتم وبرونو وقد شملت إمبراطورية كانم في أوج مجدها رقعة واسعة في غرب القارة تمتد من نهر النيجر غرباً إلى النيل شرقاً ، وقد استمرت إمبراطورية كانم قائمة فترة امتدت من القرن الثامن الميلادي إلى القرن الثالث عشر ، وبدأ الضعف بعد ذلك يدب في أوصالها فأصبحت جزءاً من برنو بعد أن كانت برنو خاضعة لها.

وقد اعتنق حكام كانم الإسلام منذ أوائل القرن الحادي عشر مما أكسب دولتهم أهمية كبيرة وفي عام (٧٨٩) هـ (١٣٨٧م) عمد قوم (البلالا) وهم لخلاط من العرب والتشاديين إلى إنهاء حكم هذه المملكة ، وبقيت الحرب قائمة بين الطرفين حتى أوائل القرن التاسع ، قتل في خلالها أربعة ملوك من دولة كانم ، وأخيراً هرب حكامها إلى (بورنو) غرب بحيرة تشاد ، وهو الإقليم الذي انتزعه من شعب (الصاو) وأسسوا هنالك مملكة جديدة ، ثم استطاع (طي دوناما) الذي حكم (٨٧٧ - ٩١٠ هـ) أن يهاجم (البلالا) وأن يعود إلى كانم ، وابتدأ الازدهار لهذه المملكة مرة أخرى في أيام الملك الإدريس (الثالث) الذي يعرف باسم (إدريس) (الونة) وقد حكم (١٥٧١ - ١٥٩٦م) ووسع حدود مملكته.

وأخيراً تدهور الحكم ، وفي هذه الأثناء هاجمت قبائل الفولاني بزعامة (عثمان دانفديو) المنطقة ، واحتلت منطقة (بورنو) وأصبحت قبائل (الهاوسا) كلها تحت حكمه وفرض الإسلام على القبائل الوثنية. استدعى أهل كائم الشيخ محمد الأمين الكانمي عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠م) فتولى الحكم ، وأنهى حكم أسرة (سيف) ووقف في وجه قبائل الفولاني ، وصد هجومهم ، وبنى له عاصمة في مدينة (كوكا) وسار في البلاد سيرة حميدة ، إلا أن الضعف عاد بعده ، وتمكن الأمير (رابح) مولى الزبير باشا أن يدخل البلاد ، كما استطاع دخول منطقة (بورنو) وبقي في الحكم حتى جاء الفرنسيون عام ١٣١٨ هـ (١٩٠٠م).

شرق أفريقيا الإسلامي

(أ) الحبشة :

كانت للعرب معرفة ببلاد الحبشة قبل الإسلام، فلما ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية - وجهر النبي الله بالدعوة وجد فيها بعض العرب هدماً لما ألفوه في معتقداتهم وخروجاً عما اعتادوا أن يعبدوه، كما وجد بعض أغنياء قريش في الدين الجديد تقويضاً لسلطانهم ونهياً عن ملذاتهم التي اعتادوها - فناصروا الرسول العدا ، ورأوا أن يوجهوا إضطهادهم إلى أنصاره عامة ، وإلى المستضعفين منهم خاصة لاسيما مواليتهم الذين وجدوا في الدعوة الجديدة مخرجاً لهم من ذل الأسر .

ولما رأى رسول الله ما نزل بالمؤمنين بدعوته من إيذاء ، رق قلبه الأنصاره ، وخاف عليهم أن يقتلوا ، فأشار عليهم أن يفروا بإيمانهم ويهاجروا إلى بلاد الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لهم مخرجاً مما هم فيه وقد هاجر إلى الحبشة عشرة رجال ، وأربع نسوة ثم زاد المهاجرون للحبشة ، فبلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً ، وسبع عشرة امرأة بالإضافة إلى الصبية ، وكلهم من بطون قريش ، وكان فيهم عثمان بن عفان ، وزوجته رقية بنت الرسول ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف، وجعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأخوه خالد بن سعيد بن العاص .

فلما رأى أهل قريش أن أصحاب رسول الله قد أمنوا ، وأطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً - استقروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين إلى النجاشي ليخرجهم من

بلادہ - فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، ومعهم الهدايا - فلما وصلا إلى بلاد النجاشي طلبا مقابلته ، ثم قال له "أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان من السفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت - وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من أبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم عليهم ، فهم أعلى منهم عينا ، وأعلم بما عانوا عليهم وعاتبوهم فيه.

فطلب النجاشي هؤلاء المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم فتقدم جعفر بن أبي طالب ووصف له حالة العرب قبل الإسلام وبعده ، وشرح له أن دعوة الرسول ﷺ ترمي إلى ترك الأوثان ، وعبادة الله والتخلق بكمكارم الأخلاق ، فقال له النجاشي ، هل معك مما جاء به من الله شيء - فقال جعفر نعم فقرأه علي - فقرأ جعفر عليه صدراً من سورة مريم ، وفيها حديث عن ميلاد المسيح - فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى ابتلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم - ثم قال النجاشي لمبعوثي "قريش" إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة اتفاقاً . فلا والله لا أسلمهم إليكما . وقد بقى المهاجرون من المسلمين في الحبشة ، وقد أكرمهم النجاشي وأمنهم على حياتهم وأصبحوا في رغد من العيش ، وقد رجع بعضهم فيما بعد إلى مكة قبل هجرة الرسول إلى المدينة وأقام بعضهم في الحبشة إلى السنة السابقة للهجرة .

واستمرت العلاقات بين الجزيرة العربية والحبشة بعد ذلك ، وأصبح العرب يترددون أكثر عليها ، واستقر بعضهم هناك ، وقيل أن أول مسلم هاجر إلى الحبشة واستقر بها هو ود بن هشام المخزومي ، وكان ذلك في خلافة عمر بن الخطاب . على أن الأحداث السياسية في الدولة الإسلامية أدت بعد ذلك إلى زيادة الهجرة إلى الحبشة والاستقرار بها - فالحبشة بموقعها الجغرافي وخصبها ، واعتدال مناخها وتنوع مواردها - كانت مغرية للراغبين في الهجرة للعمل سواء في الزراعة أو الرعي أو التجارة على أنه على الرغم من أن الصلات بين الأحباش والمسلمين - كما ذكرنا - كانت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام - طيبة وودية فقد بدأت بعض الاحتكاكات بين الأحباش والدولة الإسلامية - بعد ذلك منذ عهد عمر بن الخطاب . في عام ٢٠ هـ أرسل الخليفة سرية من المسلمين في البحر بقيادة علقمة بن مجزر المدلجي لمهاجمة الحبشة - ولا تعطينا المراجع تفسيراً لهذا الصدام الذي وقع الأحباش والعرب - لكن تذكر المراجع أن ميناء جدة تعرض لغارات الأحباش مما اضطر المسلمين ترد هذا العدوان .

وفي عام ٨٣ هـ اضطر المسلمون لاحتلال جزر دهلك القريبة من مصوع وذلك لضمان مراقبة تحرك الأحباش ، وقد وجدت بهذه الجزر نقوش عربية وشواهد قبور ترجع إلى منتصف القرن الثالث الهجري مما يدل على أن العرب المسلمين كان لهم وجود بهذه الجزر حتى هذا التاريخ، ويبدو أن دهلك أصبحت لها أهميتها كمركز مراقبة ، وكمحطة تجارية بين شبه الجزيرة العربية والحبشة.

وتشير إلى أن عدداً من القبائل العربية هاجرت واستقرت في السهول الساحلية المحيطة بأرض الحبشة ، وقد توالى الهجرات لهذه السهول التي كانت في طبيعتها الصحراوية أو شبه الصحراوية شبيهة بما اعتاده العرب في بلادهم.

وبمضي الوقت تحولت المراكز الإسلامية إلى إمارات أو ممالك إسلامية أطلق عليها البعض اسم إمارات أو سلطنات الزيلع الإسلامية ، وأطلق عليها المقريزي ممالك اسم الطراز الإسلامي. ومن الشعوب التي كونت هذه الممالك أو السلطنات البجة ، والأغفار (الدناكل) والصوماليون والجالا.

ومن أهم هذه الممالك والسلطنات - سلطنة أوفات ، وسلطنة عدل ومملكة فطجار ، ومملكة دوارد ، ومملكة بالي ، ومملكة داره ، وسلطنة شوا ، ومملكة هدية ، ومملكة شرخة - وقد امتدت هذه الممالك من ميناء مصوع شمالاً إلى إقليم أوجادين جنوباً ، ومن رأس عورتقواي شرقاً إلى أطراف الهضبة الحبشية عربياً. وإن لم تتوحد هذه الممالك الإسلامية تحت سلطنة إسلامية واحدة - لكن ظهرت واحدة أو أخرى من هذه الممالك كقوة كبرى ، فمثلاً ظهرت مملكة شوا الإسلامية التي بلغ أوج عظمتها في القرن السادس الهجري وقامت مملكة إسلامية وإمارات على حين تحصنت النصرانية في مرتفعات وحدثت حروب بين أصحاب الديانتين كان النصر في أغلب الأحيان ، جانب المسلمين، ولم يبق للأحباش سوى أجزاء بسيطة في أعالي الهضبة.

كان للأحباش اتصال دائم مع ملوك أوروبا للعمل سوية ضد المسلمين ، وقد ظهر هذا خلال أوقات متباعدة ، فعند الغزو الصليبي قدم الأحباش المساعدات فأصلح لهم دير خاص في بيت المقدس وحرصت الحبشة على مساعدة الملك النصراني وتحريضه على غزو مصر ، وكان أثر

ذلك غزو الإسكندرية عام ٧٦٧ هـ وأقدمت الحبشة على القيام ببعض الأعمال التخريبية إلى أن تحرك الجيوش المملوكية قد حال دون استمرار أعمال الأحباش.

وعندما فتح المماليك في مصر جزيرة قبرص عام ٨٣٠ هـ (١٤٢٧م) اتصل الأحباش بملوك أوروبا للعمل ضد المماليك ، وقد تجاوب مع ذلك ملك فرنسا ملك أرغونة وهدد ملك الحبشة المماليك بالقيام بغزو لبلاد العرب والأماكن المقدسة وتحويل مجرى نهر النيل.

واتصلت الحبشة بالبرتغاليين طلائع المستعمرين الذين قدموا من الجنوب بعد. التقاهم حول أفريقيا ، ووعدت البرتغال بتقديم مساعدات للأحباش في قتالهم ضد المسلمين ، ولكن لم يلبث أو وقع الخلاف بين الفريقين بعد دخول البرتغاليين إلى الحبشة عام ٩٢٨ هـ (١٥٣٤م) إذ حاولوا فرض المذهب الكاثوليكي ، وترك البرتغاليون الحبشة بعد هزائمهم أمام المسلمين بعد ست سنوات.

وفي مطلع القرن العاشر حملت راية الجهاد في شرق الحبشة إمارة عدل ووصل نفوذها إلى حافة الهضبة في الوقت الذي كان العثمانيون يدخلون من بلاد العرب ليوحدوا المسلمين ويقفوا في وجه البرتغاليين وأطماعهم في المنطقة ، إلا أن حكام إمارة عدل قد اضطروا فيما بعد إلى مسالمة الأحباش بعد أن هزموا أمامهم.

ثم حملت إمارة هرر راية الجهاد وأسلمت الشعوب البدوية مثل الدناقل وغيرها وشجع الهريين وصول العثمانيين إلى المنطقة ووقفهم في وجه الخلف البرتغالي الحبشي إذ دعموا سلطان هرر أحمد بن إبراهيم الملقب بالقرين وأمدوه بالأسلحة فاستمرت غزواتهم في الحبشة خمسة عشر عاماً ، وكانت النتائج أن دخل سلطان هرر أجزاء من هضبة الحبشة ، وعاد إلى الإسلام عدد من الذين سبق لهم أن تنصروا تحت ضغط الأحباش ، كما بدأت قبائل الجالا الوثنية تدخل في الإسلام ، كما أن هذه القبائل قد استغلت الخلاف الذي حدث بين الأحباش والبرتغاليين فشقت طريقها إلى الهضبة من الجنوب.

وازداد عدد المسلمين في القرن الحادي عشر الهجري ، ودخل التجار الكانميون إلى بلاد الحبشة فأسلم على أيديهم كثيرون ، واتجه المظلومون من الأحباش إلى عدالة الإسلام، وكان المسلمون من الأحباش ذوي مكانة اجتماعية وثقافية وخلقية، معروفين بالجد في العمل والأمانة

في المعاملة ، وقد عرف لهم هذا الأحباش حتى الذين كانوا على غير دينهم غير أن بعض المتعصبين من النصارى كثيراً ما كانوا يسيئون إلى المسلمين، ويصرّون على إقصائهم عن الوظائف الرسمية ، ومع هذا فقد وجد الإسلام طريقه إلى كثير من الزعماء ، وكان أحد رؤوس من نواب الملك في القرن الثالث عشر مسلماً وهو الرأس علي) وفي عهده تحول نصف أهالي الولايات الوسطى إلى الإسلام.

واهتم المهديون في السودان بالإسلام في الحبشة ، واتخذوا بلدة (القلابات) في شرقي السودان مركزاً للدعوة ، ورغم الإجراءات الصارمة التي اتخذها ملوك الحبشة النصارى ضد المسلمين فقد دخلت قبائل كاملة في الإسلام وكانت من قبل تدين بالنصرانية ، وقد أثار هذا حفيظة الحكام الأقباط فأصدر الملك علم ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨م) قراراً يجعل التعميد إجبارياً للسكان سواء أكانوا من النصارى أم من المسلمين ، وقد أجبر أكثر من خمسة وخمسين ألفاً من المسلمين على التعميد ، وأخرجت ألوف أخرى من منازلهم، وأبيدت جماعة ثالثة.

إسلام أريتريا :

دخل الإسلام أريتريا مع شعاعه الأول .. حين هاجر إليها المسلمون فارين بدينهم نازلين على نصيحة نبيهم و أن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد. وانتشر الإسلام على أيدي صحابة رسول الله ﷺ مع الفطرة السائدة في المكان وتوالت هجرات المسلمين، ورحلات التجار إلى موانئ أريتريا على شاطئ البحر الأحمر في مواجهة الجزيرة العربية التي عمها الإسلام، وظل الشعب متمسكاً بإسلامه رغم ما تعرض إليه من غزو بحر أكثره. دخل الإسلام في مناطق شمال أريتريا وغربها عن طريق التجار العرب والعلماء الذين استقروا بين ممالك البجة وحول مناجم الذهب في هجر وغيرها منذ القرن التاسع الميلادي.

فعلى أثر تكرر غارات القراصنة على ميناء جدة في عامي ٦٣٠م و ٦٤٠م من عدوليس التي وصلت إدارتها إلى مرحلة الذبول نتيجة الصراع الروماني الفارسي الذي أقحم اليمن وأكسوم في حروب طويلة ، اضطر العرب الأمويون إلى الاستيلاء على جزر دهلك وشاطئ مصنوع وعدوليس في عام ٨٤ الموافق (٧٠٢م) وأقام الأمويون هناك القلاع والحصون وأمنوا طرق التجارة ، فازدهرت البلاد وتشجع العرب على استيطان المنطقة وتعميرها، وأصبحت هذه المنطقة

بحكم موقعها على الساحل المقابل لجنوب الجزيرة العربية ، المجال الحيوي للجماعات التي خرجت من الجزيرة العربية للتجارة وطلب الرزق أو لاتخاذ مواطن جديدة هرباً من حالات الذعر التي سادت الجزيرة العربية والعالم الإسلامي بسبب حروب الردة ، ثم حروب الأمويين والعباسيين وحروب العباسيين مع العلويين.

وكانت القرون الثلاثة التي تلت القرن السابع الميلادي فترة تصاهر فيها العرب النازحون مع قبائل البجة التي اكتسحت المنطقة والقبائل الكوشية القديمة ، وعن طريق المصاهرة والتجارة انتشر الإسلام حتى أن المؤرخ الإيطالي كونت روسي يشير إلى قيام ولايات إسلامية عربية مزدهرة في دهلوك والشواطئ الأترية في القرن الثامن الميلادي.

ويعتقد أن قبائل الدناكل في جنوب أريتريا والسمهر في ضواحي مصوع تعد من أقدم سكان إريتريا اعتناقاً للإسلام، كما انتشر الإسلام بين قبائل الساهو التي تسكن في المنطقة الممتدة من خليج زولا إلى مرتفعات أكلي قوازي في القرن الرابع عشر عن طريق أسر دينية عربية أشهرها أسرة (بيت شيخ (محمود) التي تسكن زولا وتدعي الانتساب إلى الزبير بن العوام ، أما قبائل الساحل والبنبي عامر فقد انتشر الإسلام بينها ابتداء من القرن العاشر الميلادي، ويذكر تجار البندقية في القرن الخامس عشر قبيلة بيت معلا كقبيلة إسلامية تعيش في سواحل شمال إريتريا، وهو موطنها حتى الآن مع امتدادها إلى منطقة بركة ، ولعل لعائلة (عد شيخ حامد ولد نافعوتاي) تأثير كبير في نشر الإسلام بين قبائل الحباب والبنبي عامر ، وتنتمي هذه الأسرة إلى أشرف قريش ، وقد قدمت إلى إريتريا عن طريق السودان، ولها حتى الآن زوايا لتعليم الدين في (زفا شيخ) في محافظة الساحل ، كما لها مركز آخر في (امبيرمي) على بعد ١٥ كيلو متراً شمالي مصنوع، وتعمر القرية بأضرحة الأولياء من هذه الأسرة الدينية.

وخلال القرن التاسع عشر تحول عدد من القبائل الناطقة بالتجري والتي كانت تعتنق المسيحية ، إلى الإسلام، ومنها الماريا والمنسع والبلين والبيت جوك والحباب بفروعها الثلاثة (بيت أسقدي ، عد تكليس ، عتاريام) وكانت أسر حاكمة نزحت من هضبة حماسين إلى المرتفعات الشمالية واخضعت لسلطانها قبائل التجري الكثيرة العدد، كما اعتنقت قبيلة الباريا في وادي القاش الإسلام، وكانت من قبل وثنية ، وكذلك بعض من قبيلة البازا.

ويعود إسلام هذه القبائل إلى جهود السيد محمد عثمان المرغني ، مؤسس الطريقة الختمية الذي أوفده شيخه أحمد بن إدريس من مكة في عام ١٨١٧ وبصحبته السيد محمد علي السنوسي ، مؤسس الطريقة السنوسية ، حيث افترقا بعد وصولهما إلى مصر ، فتوجه الأول صوب الجنوب إلى السودان ثم إريتريا ، وعاد بعد أن نشر الإسلام والطريقة الختمية إلى مكة ، مخلفاً عدداً من الأبناء واصلوا بعده جهوده ، بينما توجه الثاني إلى شمال أفريقيا وأسس طريقته هناك . وهناك أسر دينية أخرى أقامت الزوايا لتعليم القرآن والدين في مختلف البقاع الإريترية ، وأشهرها (عد شيخ) في الساحل و (عد سيدنا مصطفى) في بركة ، و(بيت درقي) و (عد معلم في شمال إريتريا وغربها و بيت الشيخ إبراهيم الخليل) في طيعو في تكانيا وعائلة (كبوري) في الهضبة الإريترية وكانت بالأصل تقيم في جزر دهلك . وهذه كلها بيوتات دينية كانت تتوارث تدريس الدين وتحفيظ القرآن مكرسة جهودها لرسالتها ، وتعيش شظف العيش معتمدة في إعاشة طلابها على هدايا عامة المسلمين وأثريائهم ، وتتسبب إلى العرب بصلة الرحم، وكان يبرز من بينها ومن عامة المسلمين فقهاء ينبغون في العلم واللغة العربية ويتلقون علومهم في زبيد أو المدينة المنورة أو الأزهر ، وعرفت قرية زولا بالزوايا لتعليم الدين وقد تخرج منها عدد من الفقهاء .

وقد انتشر الإسلام في الهضبة الإريترية بين قوم عرفوا باحتراف التجارة يطلق عليهم (الجيرية) وهي كلمة أطلقت أيضاً على أماكن وأقوام مختلفة في العصور الوسطى ، فسميت (إيفات) في قلب هضبة (شوا) داخل أثيوبيا بالجبرته ، كما سميت زيلع في ساحل الصومال بهذا الاسم ، بل أطلق هذا الاسم في بعض الأحيان على عموم مسلمي الحبشة ، وفي الأزهر في القاهرة رواق قديم يعرف برواق الجبرته ، ويذكر الحميمي في كتابه (سيرة الحبشة) (١٦٦٥م) أنه التقى بزعيم (آل كبير صالح) في أندرتة بهضبة التجراي ويقول أن أسرته تقوم في كل بلاد الحبشة بنشر الإسلام وتعليمه.

وهكذا انتشر الإسلام في سواحل إريتريا وأجزائها الشمالية والغربية وفي قسم من هضبتها عن طريق عدوليس وباضع ، وهي الطريق نفسها التي دخلت منها المسيحية من قبل ، ولم تحدث بين أتباع الطائفتين احتكاكات أو حروب دينية ، بل تعايش السكان بما عرف عنهم من تسامح وبما كان بينهم من وحدة الأصول والمصالح التجارية والزراعية والرعية المشتركة،

تعايشوا بسلام وفق شعار (لكم دينكم ولي دين حتى تدخلت قوى أجنبية في القرن السادس عشر - برتغال وأتراك - جرت أهل البلاد إلى صراعات طائفية).

عبر تألفت سبع على أن انتشار الإسلام لم ينحصر في السواحل الإريترية ، بل امتد أريتريا إلى داخل الحبشة حتى ممالك إسلامية عربية عرفت ببلاد الطراز الإسلامي ، ويعزو أولندورف (Ullendroff) في كتبه الأثيوبيون (The Ethiopians) سرعة انتشار الإسلام بين الأقوام العامية الكوشية في سواحل أريتريا ودواخل الحبشة حتى بحيرات عروسي على مقربة من الحدود الكينية الحالية ، يعزو ذلك إلى رغبة هؤلاء القوم في النجاة بأنفسهم من الاسترقاق ، إذ كانت قسوة تجار الرقيق بالغة ، وكان اعتناق الإسلام يمنح هؤلاء أماناً من غارات تجار الرقيق باعتبار أن الإسلام يمنع استرقاق المسلم وأن اعتناق هؤلاء للإسلام كان يشعرهم بالانتماء إلى أخوة عالمية، من دون أن يكلفهم ذلك الانسلاخ من بيئتهم وعاداتهم التي كان دعاة الإسلام يتسامحون إزاءها.

ازدهار إمارة دهلك :

اكتسبت إمارة دهلك أهمية تجارية كبيرة في العصور الوسطى ، واستقل سلطانها عن صاحب اليمن وقد كان من قبل تابعاً له ، إلا ما كان من علاقة المداراة والاسترضاء عن طريق إرسال الهدايا من الرقيق والعسل والشمع. ووسع مملكته حتى شملت جزر باضع ومناطق الساحل الأريتري ، وأجبر القبائل المجاورة على دفع الضريبة العاملة في باضع (مصوع) وصحب الانتعاش الاقتصادي نوع من الانتعاش الثقافي ، فاستقر فيها العلماء وتأسست فيها زاوية لتعليم الدين واللغة ، وتدل الخطوط الكوفية الجميلة التي وجدت منحوتة بكثرة في الأضرحة والقبور والمساجد والقصور إلى انتعاش حركة الثقافة ، وقد أشار كل من المسعودي وابن حوقل إلى ازدهار التجارة في جزر دهلك وخاصة تجارة الرقيق السيئة الصيت.

ويتحدث سكان دهلك اليوم لهجة (تجري) محرفة تمتزج فيها ألفاظ من اللهجات الدنكلية والعربية والتجريدية ، دلالة على الصلة التاريخية للجزر بالأقاليم المجاورة ، و انتقال السكان واختلاطهم لأغراض التجارة والحروب وا والتعليم ذهبت أعداد من شيراز من بلاد فارس إلى

سواحل أفريقية الشرقية وتفرقوا في أنحاءها ، كما هاجرت مجموعة من الإحساء في شرقي جزيرة العرب ، واتخذت مقامها هناك .

توغل هؤلاء المسلمون جميعاً على طول الساحل الشرقي لأفريقيا من القرن الأفريقي في شمال بلاد الصومال وحتى مدينة (سفالة) في بلاد موزمبيق على خط عرض ٢٠ جنوباً ، ولم يتوغلوا إلى الداخل كثيراً ، وكانت مهمتهم تجارية في أغلب أمرها ، وإن كانت التجارة قد يسرت في كثير من الأحيان سبل الاتصال بالسكان ودعوتهم إلى الإسلام .

استطاع هؤلاء المسلمون أن يؤسسوا مراكز تجارية كبيرة من أشهرها (كلوة) و (دار السلام) و (سفالة) وقد زار هذه المراكز الرحالة المسلم ابن بطوطة" ووصفها وصفاً جميلاً ، كما أعجب بهذه المدن البرتغاليون عندما جاءوا مستعمرين نظراً لنظامها ونظافتها .

أسس المسلمون في هذه المناطق إمارات وممالك متعددة ، ولم تكن متحدة فيما بينها الأمر الذي جعلها ضعيفة لا تثبت طويلاً أمام قوة البرتغاليين الذين كانوا طلائع المستعمرين في تلك الجهات، ومن أشهر هذه الممالك مملكة الزنج التي تأسست في القرن الرابع ، وكانت حاضرتها مدينة كلوة في جنوبي تانزانيا اليوم ، وقد استطاعت هذه المملكة أن تنتشر الإسلام في كل ما يسمى اليوم زامبيا" وموزمبيق ، وما لاوي" وبلغت جهودها في هذا السبيل روديسيا .

الصومال :

دخل الإسلام في الصومال منذ أيامه الأولى ، ورغم اختلاف الآراء حول تاريخ دخول الإسلام في الصومال، إلا أن أقرب الأدلة الراجعة إلى الحقيقة ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن الإسلام ظهر في الصومال قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة عن طريق الصحابة المهاجرون إلى الحبشة. ظهر الدين الإسلامي في الصومال الذي يحيط به من الشمال الغربي - الحبشة المسيحية ، وفي الغرب جاله الوثنية ، فكان لزاماً على الشعب الصومالي المسلم - حمل راية الدعوة الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي ، ورغم محاربة الأحباش لانتشار الدين الإسلامي إلا أنه يبدو أن فترة قد مضت دون أن تجد الحبشة فرصة لمحاربة انتشار الإسلام ومقاومته بسبب :-

أولاً : : انشغال الحبشة بالصراع الدموي الذي قام به المسيحيين واليهود الذين اغتصبوا عرش الحبشة من سنة ٩٢٥ ١٢٥٥م.

ثانياً : لم يكن للحبشة تنظيم سياسي أو حكومة مركزية قوية تقف في وجه التيار الإسلامي الجارف.

هذا أدى إلى إيجاد فرصة لتأسيس الإمارات الزيعلية السبع) أو دول الطراز الإسلامي التي كانت في صراع مستمر مع الحبشة لفترة طويلة من الزمن ، وهذه الإمارات هي :-

١ - إيفات

٢- دواوا.

٣- البيني

٤- هديا

٥- شرخا

٦- يالي

٧- درة

وهي عبارة عن سبع محافظات يتولى شئون كل منها حاكم صومالي مستقل ذاتياً . ويرجع الفضل في تأسيس هذه الإمارات إلى المهاجرين العرب. أما الصراع الإسلامي الصومالي مع الحبشة المسيحية فقد استمر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلى أن تولى عرش الحبشة "لبنا دنغل Lebna Dengel (١٠٠٨ - ١٥٤٠) ، وقد أثارت أنبازه الاهتمام في أوروبا.

وكان مجئ البرتغاليين نذيراً لا يمكن تجاهله ، فسعوا إلى الاستيلاء على السواحل الصومالية حتى يتمكنوا من القضاء على النفوذ الإسلامي والتجارة العربية وبذلك يخلو أمامهم طريق التجارة الشرقية ، وأدرك المسلمون من الصوماليين والدناقلة وغيرهم أن تحالفاً بين الأحباش والبرتغاليين المسيحيين فيه دمارهم وسوف ينتهي الأمر بخضوعهم للاستعمار الأجنبي وتزعم الجهاد ضد هذه القوى المسيحية التي شاركت فيها البرتغال مع الأحباش الزعيم المسلم والإمام الغازي أحمد

بن إبراهيم الذي كان لجهاده أثر كبير في نشر الإسلام في شرق القارة ، حيث شهد القرن السادس عشر دخول قبائل البدو في حركة الجهاد الإسلامي.

وقف الإمام أحمد بن إبراهيم أمام غزو الأحباش الذين اندفعوا إلى غزو إمارة هرر الإسلامية عام ١٥٢٧ وهزم الأحباش وانتصر عليهم في ١٥٢٩ وواصل غزو الحبشة من الداخل ، وفي ١٥٣١ دخل منطقة شوا وأمهرة واستطاع المسلمون السيطرة على جنوب الحبشة عام ١٥٣٥ فاستتجد الأحباش بالبرتغاليين الذين أرسلوا قوة قوامها يزيد عن أربعمئة جندي من حملة البنادق لمناصرة الأحباش ضد هذا الجهاد الإسلامي ، مما أعطى المعارك طابعاً صليبياً ولكن في عام ١٥٤٠ مات الإمبراطور "لبنا دنقل" وخلفه ابنه الإمبراطور "جلاديوس" الذي انتصر على الصوماليين في معركة رهيبة بالقرب من بحيرة تانا.

الجدير بالذكر أن الأتراك كان لهم دور هام في مساندة مسلمي الصومال ضد مسيحي الحبشة والبرتغال ، فقد قدم الأتراك المال والأسلحة إلى الصوماليين عند اندلاع الحرب بين الجانبين وذلك عن طريق حاكم "زبيد" باليمن ، كما كان شريف مكة يمددهم بالمساعدات المالية والعسكرية ، وفي نفس الوقت نجد أن كلاً من تركيا والبرتغال كانت تهدف إلى السيطرة على البحر الأحمر والهيمنة على المراكز وفي ١٥٥٩ شنت القوات الصومالية هجوماً بالتعاون مع هرر قتل فيه "جلاديوس" وبالرغم من الانتصار فإن الحبشة المسيحية نجت وزال الأمل في إقامة دولة إسلامية فيها وقد انحسر نفوذ الصوماليين في هرر وملحقاتها بالتدرج التجارية حتى وقعت الصومال في قبضة الاستعمار الأوربي.

الفصل الثاني

دوافع الاستعمار الأوروبى فى قارة أفريقيا

- تعريف الاستعمار
- الدافع الدينى
- الدافع السياسى
- الدافع الجغرافى
- الدافع الاقتصادى
- الدافع الاستراتيجى
- تجارة الرقيق
- الثورة الصناعية
- الدافع النفسى

إذا كان كشف القارة الإفريقية والقاء الضوء عما بداخلها يمثل صفحة بيضاء فى العلاقات الإفريقية الأوربية — فإن اتجاها الأوربيين للاستعمار والاستحواذ على مساحات واسعة من القارة وتسخير الأفارقة وخيرات بلادهم لتحقيق الرفاهية للأوربيين يمثل صفحة سوداء فى تاريخ العلاقات الأوربية الإفريقية، والاستعمار ظافرة قديمة، حتى أننا يمكن أن نقول أن جذورها تضرب فى أعماق التاريخ إلى مدى بعيد، وقد شهد العالم القديم قيام إمبراطوريات استعمارية ضخمة كالإمبراطورية الرومانية، كإمبراطورية الإسكندر المقدوني .

لكن الاستعمار الأوربي فى أفريقيا الذى برز بنوع خاص فى القرن التاسع عشر تطور فى أساليبه ووسائله وأهدافه والنتائج التى ترتبت عليه حتى خيل للبعض إنه ظاهرة جديدة مرتبطة بالقرن التاسع عشر فحسب ، ولذا فلا بد من الوصول لتعريف دقيق للاستعمار فى شكله الجديد ينطبق على هذه الظاهرة التى برزت فى نشاط الدول الأوربية فى افريقيا.

المقصود بالاستعمار:

تعددت التعاريف التى ذكر للاستعمار فى العصر الحديث؛ فالبعض عرفه بأنه يعنى سيطرة جماعة على جماعة أخرى .

و عرفه د . كوامي روما بأنه سيطرة دولة اخرى واستخدام هذه الدولة المستعمرة كونها الصناعية المتفوقة لإخضاع شعب آخر واستغلاله اقتصادية . فالاستعمار من وجهة نظر د . نكروما هو السياسة التى بها ترتبط وتؤيد الدولة الام مستعمراتها؛ و توجيهها من أجل تحقيق مصالحها الاقتصادية الخاصة . وهذا التعريف وغيره من التعريفات المتعددة التى ذُكرت للاستعمار ليست وافية بحيث تشمل جميع اشكال الاستعمار الحديث ووسائله وأهدافه .

ولعل تعريف الأستاذ الدكتور (محمد عوض محمد) هو اكثر هذه التعريفات شمولاً فقد عرف الاستثمار بأنه : " العمل أو مجموعة الأعمال التى من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطه دولة أو جماعة منظمة من الناس على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض أو على الأرض والسكان فى آن واحد"

فالأعمال المشار إليها قد يكون منها استخدام القوة الحربية، وقد تحدث السيطرة على الأرض بشرائها بطرق منها عوامل الضغط ، والنص على الدولة أو جماعة منظمة من الناس قصد به أن يشمل الاستعمار .

الأعمال التي قامت بها (الشركات) التي تألفت في العصور الحديثة مثل الشركات الاستعمارية الألمانية التي أسسها كارل بيتر (K.Peters) ، وشركة الهند الشرقية البريطانية وغيرها من الشركات العديدة التي كثرت في العصر الحديث وقامت بأعمال استعمارية عنيفة في شرق أفريقيا وكثيرا ما مهدت لحكوماتها البسط نفوذها على الأماكن التي كانت قد ارتبطت بها هذه الشركات .

والإشارة إلى أن التسلط قد يقع على الأرض فقط عادة لا يحدث إلا في بلاد خالية من السكان أو في أماكن الخالية من السكان •

أما أن السيطرة قد تقع على السكان دون الأرض فيكون ذلك بترك الأرض ومرافقها للسكان الأصليين لاستقلال أرضهم، وهذا عكس ما حدث في شرق القارة حيث تملك المستعمرون على الأرض والسكان ، والسبب لا يرجع لميزة إمتاز بها مستعمرو الغرب لكن الأمر يرجع إلى أن أرض شرق أفريقيا المرتفعة تصلح لسكنى الأوربيين بينما أرض أفريقيا الغربية منخفضة شديدة الحرارة لا تلائم سكنى المستعمرين الأوربيين فسيطروا على السكان واستخدموهم لاستغلال الأرض .

و كما حدث أيضاً في القرن الخامس عشر حيث قامت الدول الأوربية بالاستيلاء على مناطق السواحل الإفريقية أقامت فيها الحصون والمراكز التجارية؛ من أجل تجارة الرقيق •

وهذا التعريف كما ترى شامل وعملي يسهل قياس الصور المختلفة التي تقابلنا على أساسه

والرق من البشع أنوا الاستعمار فهو استعباد للإنسان واستغلال له سواء في بلده الأصلي أو نقله عنوة للعمل في بلاد أخرى لتحقيق الرفاهية للمستعمر الغريب ويختلف هذا بالطبع عن الهجرة الإجبارية •

وقد يتبادر للذهن سؤال هام هو هل يدخل ضمن الاستعمار النفوذ الاقتصادي أو الثقافي؟ والسليم ان المشروعات الثقافية والاقتصادية إذ لم تؤد الى بسط النفوذ السياسي أو تكون نتيجة نفوذ سياسي فهي ليست من الاستعمار فى شئ .

فاستخدام رؤوس الأموال الأجنبية أو إنشاء معاهد ثقافية أجنبية فى بعض البلاد إن لم تكن نتيجة تسلط اجنبى أو يترتب عليها هذا التسلط اى تكون ذريعة للتسلط فإنها لا تدخل تحت تعريف الاستعمار . ولكن إذا اتخذت البعثات العلمية أو الدينية كما حدث فى أحوال كثيرة ذريعة تتذرع بها الدول لبسط سلطانها السياسي على قطر أو كتمهيد لاحتلاله فهذا بالطبع عمل استعماري .

وواضح أن الفرق و الحد بين الاثنين الاستعمار والاستثمار يتمثل فى خيط رفيع دقيق والأمر يحتاج ليقظة و تدقيق للتفريق بين الاثنين .

دوافع الاستعمار الاوروبي لأفريقيا وتطورها:

مع أن الاستعمار الأوربي الحديث لأفريقيا بدأ فى القرن الخامس عشر - إلا أن الأوربيين اكتفوا فى القرن الأول من استعمارهم باتخاذ نقط ساحلية أو الإستقرار فى بعض الجزر القريبة من الساحل لكن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقبيل نهاية هذا القرن على وجه الخصوص ظهرت دوافع جديدة أدت إلى النهمة الاستعماري فأخذت الدول الأوروبية تتوغل فى داخل أفريقيا وأراد بعض ساسة أوربا ايجاد أسس تتحرك فى إطارها هذه الدول وهى تعمل لمد نفوذها لمناطق جديدة فى القارة.

أهم الدوافع التي دفعت الأوروبيين لاستعمار أفريقيا:

١- الدافع الدينى:

انتهى الصراع بين العرب والإمارات المسيحية فى شبه جزيرة ليبيا بخروج العرب نهائياً من أسبانيا فى عام ١٤٩٢ فأصبحت الأندلس بحق - كما عبر عنها بعض الكتاب العرب

(فردوس العرب المنقود) لكن البرتغال استطاعت ان تتخلص من الوجود العربي وأن تقدم مملكة مستقلة قبل الأسبان بما يقرب من قرنين.

وحمل البرتغال لواء حركة دينية جديدة يعتبرها بعض المؤرخين امتداداً للحركة الصليبية وذلك بهدف تعقب القوى الإسلامية والاتصال بملك الحبشة المسيحي — الذى ذاع صيته فى أوربا ، وإن كانت بلاده لم تكن معروفة على وجه الدقة للاشتراك فى معركة تطويق الدول الإسلامية ودول الممالك بالذات والقضاء على مصدر وقوتها التى تتمثل فى احتكار تجارة الشرق والسيطرة على شرايين الملاحة المؤدية إلى مصادر هذه التجارة .

ولا شك فى أن الحملات التى قام بها الأمير هنرى الذى اشتهر باسم هنرى الملاح (Henry the Navigator) و رحلات غيره من الرحالة البرتغال كانت كلها تهدف إلى توجيه ضربة قوية للقوى العربية بالقضاء على احتكار العرب لتجارة الشرق ، وبذا تستنزف هذه الثروة التى كانت تتدفق عليهم وتضعف قدرتهم العسكرية بالتالى.

والدليل على ان الدافع الدينى وراء الحركات الاستعمارية فى ذلك الوقت أن البابوية باركت هذه الحركات و بادرت بالتدخل لفصل النزاع بين الدولتين الاستعماريتين البرتغال و أسبانيا .

وقد أدركت القوى الإسلامية الهدف من وراء هذا الشايط الاستعماري والذى تصدت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغال ونشاطهم فى البحار الشرقية- لكن هزمت الأساطيل المصرية فى موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ واستأنف العثمانيون الذين ورثوا السلطة فى مصر والشام والحجاز من الممالك — القتال ضد البرتغال وحلفائهم .

ولا يقلل من حقيقة هذا الهدف اشتراك المدن الإيطالية المسيحية إلى جانب الممالك فى حربهم ضد البرتغال فقد كانت أساطيل هذه المدن هى التى تقوم بنقل بضائع الشرق من موانئ الشام ومصر إلى أوربا فمصلحتها الاقتصادية هى التى حتمت عليها هذا الاتجا.

ويرتبط بالعامل الدينى الحركات الدينية التى شاهدها أوربا إثر النهضة الأوربية ، فقد أدت حركية الإصلاح الدينى والدعوة لتخليص المسيحية من الشوائب التى ارتبطت بالكنيسة

ورجال الدين فى العصور السالفة — إلى تحطيم الوحدة الدينية لأوروبا وظهرت مذاهب دينية كالبروتستانتية ، وقامت نتيجة لذلك مذابح دينية وحروب فى أوروبا ادت لهجرة الكثيرين من بلادهم - لكن لم تلبث موجة الصراع والنشاط الدينى أن اتجهت إلى ناحية التبشير بالمسيحية بين القبائل فى المناطق التى كانت تسود فيها الوثنية فى المستعمرات الجديدة .

واتجه نشاط الجمعيات التبشيرية بصفة خاصة إلى أفريقيا بعد الكشوف الجغرافية الذى بدأت تلقي الأضواء على داخل القارة فكان المبشرون يسيرون عادة فى ركاب المستكشفين، وإن كانت بعض البعثات التبشيرية قد سبقت أحيانا فى كشف النقاب عن مناطق لم تكن معروفة للأوروبيين.

ونذكر فى هذا المجال جهود لىنجستون (Livingstone) فقد انضم فى عام ١٨٣٨ إلى جمعية لندن التبشيرية، وقد وجه نظره للعمل فى جنوب أفريقيا الدكتور موفات (Moffat) ، وقد تحدثنا عن نشاطه فى كشف نهر الزمبىزى وفى إثارة الرأى العام العالمى ضد تجارة الرقيق بعد أن شهد بعينية ما يقاسيه الأرقاء من الآلام ، وقد دفعت رحلات لىنجستون ببعثات دينية أخرى من بريطانيا واستكلندا .

وفى شرق أفريقيا كان للبعثات التبشيرية الكاثوليكية نشاطها الملحوظ ونذكر بالنات فى هذا المجال جهود الأب سابيتو (Sapeto) وهو من أشهر رجال التبشير الإيطاليين، وقد دخل فيما بعد فى خدمة شركة روباتينو الإيطالية للملاحة وهى الشركة التى لعبت الدور الاول فى الاستعمار الإيطالى فى شرق القارة .

على أن الجمعيات التبشيرية التى بدأت بالعمل على نشر المسيحية والحضارة بين الأفارقة انغمست فى ميدان الاستعمار فقد أصبح الهدف الدينى يتخذ كوسيلة لتبرير الاستعمار ، فكان كثيرون من رجال الدين دعاة للاستعمار ، واشتهرت منهم أسماء متعددة فى هذا المجال نذكر منهم على سبيل المثال الكاردينال الفرنسى لافيجيرى (Javigerie) .

وقد كثر فى كتابات هؤلاء وأقوالهم الحديث عن النظريات الإنسانية و الأبوية ودور الرجل الأبيض الذى عبر عنه بالأب الأبيض (White Father) أو الأخ الأكبر (Older

Brother) لكن أثبتت الأيام أن الأمر لا يخرج عن كونه قناعاً يغطي به الاستعمار وجهه القبيح، وفي كثير من الأحيان حدثت أن انعكست النظرية المعروفة فكانت البعثات التبشيرية ممهدة للاستعمار وليس العكس (The Flag Followed the Missionary) وقد أشار لينين إلى ذلك فذكر ان تأثير الدين فى السيطرة على الشعوب تأثير مسرحى ، فالمسرح يبدأ أول ما يبدأ بالإرساليات الدينية ثم يتبعها علماء الأجناس البشرية والتجار وأصحاب الامتيازات ورجال الغدرة، فبينما تتوسل الإرساليات الدينية إلى الوطنيين أبناء المستعمرات بان يكنزوا كنوزهم فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا يأكل صدأ ، نرى التجار واصحاب الامتيازات ورجال الإدارة يحصلون على معادن بلادهم وعلى مصادر الثروة الطبيعية فى أرضهم ويقضون على فنونهم وحرفهم وصناعاتهم الوطنية لكن من الإنصاف أيضاً أن نذكر لهذه البعثات التبشيرية جهودها فى مجال التعليم ومجال العلاج بالذات.

تجارة الرقيق

كان الهدف من حركة الكشوف الأولى الوصول إلى الشرق بفرض الحصول على بضائع الشرق المطلوبة فى أوربا ، ولذا اهتمت البرتغال التى بدأت صفحة الاستعمار الأوربي فى العصر الحديث بإنشاء مراكز تجارية أو حصون عسكرية فى الساحل الغربى لأفريقيا أو بالقرب منه حتى اطلق على الاستعمار البرتغالى فى ذلك الوقت تعبير (استعمار البهار) اشارة للهدف منه _ لكن الأمر تحرك بسرعة فأصبحت السلعة المتداولة هي الإنسان الإفريقي (العاج الأسود) بالإضافة إلى بضائع أفريقية أخرى كالذهب والصبغ والعاج.

ورغم أن البداية التى افتتحت بها البرتغال صفحة الرق فى العصر الحديث تبدو فى مظهرها إنسانية متصلة بالدافع الديني اذ ادعت البرتغال ان هدفها هو ايجاد الأفارقة الوثنيين عن أجوائهم الأفريقية لتلقينهم مبادئ المسيحية ليعودوا إلى بلادهم ليكونوا رسلاً لنشرها - فلا شك فى ان هذا لا ينفى أن البرتغال هم مؤسسو مدرسة الرق بكل مساوئه فى العصر الحديث فقد تطور الأمر حتى أصبح الساحل الغربى لأفريقيا مورداً هاماً للأيدي العاملة التى احتاجها الغرب لتعمير العالم الجديد .

وحتى نهاية القرن الساس عشر كانت البرتغال هى التى تحتكر تجارة الرقيق وتقوم بتمويل أملاكها والأملاك الأسبانية وغيرها بحاجتها من الرقيق الأفريقي و كانت فى لشبونة سوق كبيرة للرقيق تمد العالم الجديد بحاجته منهم.

ولما ازدادت الحاجة للرقيق الأفريقي _ اتجهت البرتغال لتسليح اتباعهم ممن أطلق عليهم لفظ (الجالابة) بالأسلحة النارية لمضاعفة قدرتهم على القنص فقد كان البرتغال يفضلون عدم المخاطرة بأنفسهم بالتوغل للداخل _ طالما أنهم يستطيعون عن طريق أتباعهم المسلحين الحصول على حاجتهم من الرقيق وهم مطمئنون فى مراكزهم الساحلية ولذا أطلق بعض المؤرخين على القرن السادس عشر فى أفريقيا تعبير (عصر البنادق) فقد انتشر استخدام البنادق فى القارة بعد أن كانت الأسلحة البدائية كالرمح والسهم هى الأسلحة التى عرفها الأفريقي قبل ذلك، وهكذا أصبح الرقيق أغلى سلعة اكتشفتها القوى الاستعمارية فى أفريقيا.

ومع ذلك لم تستطيع الجهود التى بذلتها البرتغال أن تسد طلبات الدول الأوروبية الأخرى المتزايدة للرقيق فدخل الهولنديون والفرنسيون و الإنجليز والدنمارك وغيرهم من الأوروبيين هذا الميدان إلى جانب البرتغال ليسدوا الطبات المتزايدة للأيدى العاملة الرخيصة للعمل فى مزارع القطن والدخان وقصب السكر فى أمريكا.

واتجهت هذه الدول لبسط سيطرتها على مناطق معينة من الساحل الأفريقي أو فى الداخل لتضمن حصولها على حاجتها من الرقيق - وتشكلت شركات خاصة لنقل الرقيق الأفريقي وما يرتبط بهذا العمل من نشاطات أخرى .

وقد بلغت أرباح هذه التجارة - تجارة الرقيق - حدًا خياليًا فمثلاً كانت سفن الرقيق البريطانية تقوم فى الجولة الواحدة برحلة مثثلة فتنتقل الفائض من المصنوعات الإنجليزية لعرب أفريقيا حيث تستبدلها بشحنات آدمية تعبر بها المحيط الأطلنطي فتقرعها فى مناطق العمل بأمريكا ثم تعود بالتالى لبريطانيا محملة بالسكر والقطن الخام والتبغ وغيرها من محاصيل هذه الاقاليم ، وفى كل مرحلة من هذه المراحل تحقق بالطبع أرباحاً طائلة، وكان هذا سر الثراء الفاحش الذى بدت مظاهره فى بعض المدن والموانئ الأوربية، فإن كان الهولنديون يرددون فى تراثهم أن مدينتهم العظيمة (امستردام) قد نبت على عظام الرنجة التى اشتهروا بتسويقها ليس

بعيداً عن الصواب أن تقول بالمثل إن لشبونة في البرتغال وليفربول في إنجلترا قد بُنيت على عظام الرقيق السود وبدمائهم.

وقد حاول بعض الباحثين أن يصل إلى إحصاء تقريبي لعدد الرقيق الذين وصلوا للمستعمرات الأوروبية منذ بدأت حركة الاسترقاق في القرن الخامس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر _ لكن الأرقام اختلفت ولم تستطع أن تصل لأعداد تستند على أدلة قوية، فقد قدر ما وصل المستعمرات الأوروبية كلها في قرن واحد من ١٦٨٠م إلى ١٧٨٠ بحوالي ٤٠ مليون أفريقي — وإذا صح هذا التقدير وإذا وضعنا في الاعتبار أن النظام الذي أتبع في عمليات القنص والشحن والترحيل ترتب عليه أن ما كان يصل حياً لا يمثل إلا نصف ما فقدته القارة فهذا يعنى أن القارة استنزفت في قرن واحد ما يقرب من ٨٠ مليون من أبنائها .

هذا وقد أطلق الأوروبيون على السواحل الأفريقية بل وعلى بعض المناطق التي بسطوا نفوذهم عليها في القارة أسماء تتطابق مع نشاطهم مثل ساحل الذهب وساحل العبيد ، وساحل العاج ، وساحل الزنج .

هكذا ظل الرق مستمراً والقارة الأفريقية تتعرض لحملات منتظمة من الاستنزاف البشرى والحكومات الأوروبية والشركات وتجار الأسلحة يشجعون استمرار هذه التجارة التي ثبت أنها أكبر أنواع التجارة ربحاً .

لكن من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بدأت ترتفع الصيحات مطالبة بوضع حد لهذه التجارة البشعة، وظهرت حركات تعارض الرق والإتجاز فيه (Anti Slavery Movement) كما انبرى عدد من رجال الدين ومن الجماعات التي عُرفت باسم أنصار الإنسانية (Humanitarians) تحاول أن تدفع الحكومات و البرلمانات لسن القوانين باعتبار هذه التجارة محرمة . ولقيت هذه الحركات معارضة من العديد من المنتفعين بهذه التجارة فقد وصل الحد مثلاً إلى أن اللورد دارموت (Darmot) وزير المستعمرات البريطانية يرد على لوضع حد لهذه التجارة بقوله : "إننا لا نسمح بأى حال بعرقلة هذا النشاط التجاري الذي ثبت أنه عظيم الفائدة لشعبنا".

وبرز في الحركة الداعية لوضع حد لهذه التجارة أشخاص من أمثال وليم ويلبرفورس (William wilerforce) عضو البرلمان الإنجليزي.

وقد توجهت جهود هؤلاء بصدور القوانين بمنع هذه التجارة، وفرض عقوبات على من يعمل بها - ولم يتم هذا الأمر في كل الدول الأوروبية في وقت واحد، كما أن الأمر تدرج من تحريم الاتجار في الرقيق إلى إصدار القوانين بتحريم العبيد السابقين.

على أنه يرتب على هذه الحركة تحرير عدد كبير من الرقيق الموجودين خارج القارة في إنجلترا و أمريكا وغيرها وأدى بعضهم رغبته في العودة إلى القارة الأم التي سبق أن عاش فيها آبائهم وأجدادهم - وأدى هذا لتأسيس شركات تعمل لإعادة توطين هؤلاء -الأفارقة في وطنهم الأصلي، كما أدى هذا لاتخاذ مناطق معينة.

على الساحل الأفريقي لإقامة مستوطنات لهؤلاء الأمريكيين وبالمثل سيراليون للزنج البريطانيين .

على أن الدول الاستعمارية اتخذت حتى من هذه الخطوة الإنسانية ذريعة لتحقيق أطماعها الاستعمارية باسم تنفيذ قوانين تحرير الرقيق، فقد تدخلت إنجلترا في شئون زنجبار بحجة التأكد من أن السفن في موانئها لا تحمل رقيقاً.

٣-دوافع استراتيجية:

جعل التطاحن بين الدول الاستعمارية على مناطق معينة في القارة مركزاً ممتازاً بالنسبة لموقعها وتحكمها في الملاحة البحرية أو غيرها، ودفع ذلك الدول صاحبة المصلحة للإسراع باستعمارها، فمثلاً موقع الجزائر على البحر المتوسط في مواجهه سواحل فرنسا الجنوبية كان من الدوافع وراء الاستعمار الفرنسي لها فهي عام ١٨٣٠، ويقال مثل هذا عن أماكن أخرى في شرق القارة وغربها فموقع مصر الهام على البحرين المتوسط والأحمر والأهمية التي أصبحت لها بعد إفتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ كان وراء الاستعمار البريطاني لمصر ومسك بريطانيا بالنفوذ في منطقة القناة .

كذلك أثر موقع المغرب الاقصى (طنجة) بالذات وتحكمها فى المدخل العربى للبحر المتوسط فى موقف الدول الاستعمارية من المغرب ويقال مثل ذلك على منطقة رأس الرجاء الصالح (كيب تاون) وأهميتها فى الملاحة بين غرب القارة، وشرقها ، كذلك منطقة باب المنذب والمناطق التى تقع خلفها على الساحل الأفريقي الشرقى وما نطلق عليه اليوم (منطقة القرن الأفريقي) كان ولا يزال موقعها سبباً فى الصراع الاستعماري عليها .

٤) عوامل متصلة بالدول الأوروبية ذاتها وحالتها الداخلية:

كانت الأوضاع الداخلية فى بعض الدول الأوروبية؛ من الدوافع التى دفعتها لتخرج لميدان الاستعمار نذكر على سبيل المثال أن حالة القلق الداخلى التى كان يعاني منها الشعب الفرنسى منذ عام ١٨١٥ جعلت الحكومة تفكر فى تحويل نظر الشعب عن المشاغل والاهتمامات الداخلية _ فالشعب الفرنسى كان لا يزال فى حالة السكر بمجد العظمة الإمبراطورية وكان ذلك من الأسباب الي دفعت الحكومة الفرنسية للتفكير فى غزو الجزائر ، وقد صرح رئيس الوزراء بوليناك (Polignac) فى مجلس الوزراء عند مناقشة موضوع حملة الجزائر بان هذه الحملة ستجعل أنظار الشعب الفرنسى تتجه إلى الخارج، وأن النصر فى هذه الحملة سيساعد على تقوية الملكية وسيكون فيه الرد العملى على الذين اتهموا الملكية منذ عودتها فى عام ١٨١٥ بإتباع سياسة السلم والاستسلام .

٥) العوامل النفسية وراء الاستعمار الأوربي الحديث:

الدول كالأفراد يتحكم فيها ما يتحكم فى الأفراد من ظاهرات نفسية كشهوة الأمتلاك وحب العظمة والظهور والمباهاة والغيرة، و محاكاة الغير - وأدى هذا للتنافس الشديد بين أبناد أوروبا ودولها وحكوماتها .

وكانت أفريقيا القارة المكتشفة حديثاً المجال الفسيح للتنفيس عن هذه الصراعات النفسية كالأوضاع الاجتماعية والسياسية والثورات الداخلية والضغط من الأفراد و الجماعات على الحكومات لمجاراة الدول الأخرى فى ميدان الاستعمار، كل هذا وراء خروج الأوربيين للاستعمار .

وقد كان الكتاب الإنجليزي في القرن الحساوي يتحدثون عن إمبراطوريتهم التي لا تغيب عنها الشمس ويتضح ذلك أيضاً في ضغط الرأي العام الألماني على الزعيم الألماني بسمارك ليخرج بألمانيا إلى ميدان الاستعمار أسوة بإنجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوروبية .

٦) الثورة الصناعية في أوربا:

أوجدت الثورة الصناعية في أوربا حوافز جديدة دفعت عجلة الاستعمار الأوربي فهذه الثورة ادت للإنتاج الكمي (Mass Production) الذي يترتب عليه التخفيض في تكلفة الإنتاج ، وذلك بدلا لسد الحاجات الضرورية للمواطنين فحسب ، فأصبحت الحاجة ماسة للمواد الخام ثم لأسواق لتصريف الفائض من الإنتاج.

وودت الدول الصناعية في أفريقيا مجالا طيباً حيث تتوافر المواد الخام الزراعية والمعادن إلى السوق الواسعة لتصريف الفائض من منتجاتها من الإنتاج وذلك بعكس الوضع في أوروبا.

وقد برز هذا العامل الاقتصادي كدافع هام وراء الاستعمار (Economic Imperialism) حين انتقلت مقاليد الأمور في الدول الكبرى الصناعية إلى طبقة التجارة والرأسماليين وأصبحت الأغراض التجارية والصناعية بالذات تحكم في سياسات هذه الدول وسعت الرأسمالية الأوروبية إلى البحث عن مجالات أخرى لاستثمار رؤوس أموالها - وكان المجال أماسها واسعاً في القارة الأفريقية بالذات.

وترتب على هذا تأسيس الشركات التجارية الكبرى التي ذاع صيتها في ميدان الاستعمار في أفريقيا، فقد اكتشفت هذه الشركات في أفريقيا مستودعا كبيرا للمواد الخام من منتجات الكساء الخضري الى الثورة المعدنية - فاندفعت لاستنزاف مواد القارة حتى كادت تنضب مواردها النباتية والحيوانية والمعدنية فقد كان قانون المستعمرين هو امتصاص زبد الإقليم (Skim The Cream) ، و اصبح افضل تشبيه للاستعمار بأنه مضخة ماصة في المستعمرات كابسه في الدول الاستعمارية.

وكانت المستعمرات في نظر الدول الاستعمارية لا تخرج عن كونها مصدرا للمواد الخام وللعمال ذوي الأجور الرخيصة بالإضافة إلى مستودع للفائض من المصنوعات غير الجيدة

بأسعار عالية، واصبح الأوربيون ينادون " بان العقل الأبيض (white Brain) والعقل الأسود (Black Brawn) يجب أن يتعاونوا لخير الطرفين.

وتاريخ هذه الشركات الاوربية الاستعمارية ودورها فى القارة الأفريقية جدير بالدراسة ، فقد اندفعت هذه الشركات لاستغلال القارة مستتدة على ما أمدها به العلم من وسائل وإمكانيات فأصبحت المواصلات ميسرة كما أخضعت أمراض المناطق الحارة لسلطان العلم والطب واصبح الوصول إلى داخل القارة ممكنا ومأمونا إلى حد كبير.

وكانت الشركات كثيرا ما تبدأ العمل، فى القارة قم لا تلبث أن تترك المجال للحكومات متذرة بسبب أو آخر - و لذا فإن القاعدة القديمة القائلة أن الاستعمار تبيع التجارة (The Trade Follows The Trade) أنقلبت فأصبح الاقرب للصواب أن يقال (The Flag Follows The Trade) .

والأمثلة على ذلك كثيرة فالاستعمار البلجيكى للكنغو كانت بدايته الشركة التي اسسها الملك ليوبولد الثانى (leobold II) ملك بلجىكا برأسمال مليون فرنك لاستغلال الكنگو ، كذلك فإن الشركات الاستعمارية الالمانية كشركة كارل ببترز (K.Perers) التي بدأت نشاطها فى شرق أفريقيا ، وكانت شركة سيلل جون رودس التي عرفت باسم شركة جنوب لأفريقيا البريطانية والتي صدر مرسوم بتأسيسها فى عام ١٨٨٩ بدعوى استغلال مناجم الذهب فى جنوب أفريقيا وروديسيا والمناطق المحيطة بها - الأساس الذى قام عليه الاستعمار البريطانى فى هذه الجهات ، وكانت شركة روباتينيو الإيطالية (Robbatinio) ممهدة لاستعمار الإيطالى لميناء عصب وللمستعمرة إريتريا .

ولكى تحقق الدول الاستعمارية أهدافها رسمت سياستها على أسس أهمها:

١ -التحكم فى أسعار المواد الخام بالمستعمرات بحيث تصل لأماكن التصنيع فى الدول الكبرى بأقل سعر مكن .

٠٢ أن تبقى المستعمرة دائماً بلاداً غير صناعية .

٠٣ . ألا يكتسب أبناء المستعمرة الخبرة الغنية والمعرفة التي تعينهم على تنمية صناعاتهم المحلية.

٤ . العمل على أن تكون الأيدي العاملة الوطنية دائماً متوفرة وعلى استعداد لتلبية طلبات الدول المستعمرة.

٠٥ الاحتفاظ بمستوى اجور العمال الوطنيين المنخفضة في المستعمرات .

٠٦ وضع قيود على المستعمرات بحيث لا تتاجر مع الدول الأخرى .

وقد عبر عن هذه الأهداف بصراحة رئيس الحكومة الفرنسية جولس فيرى (Jules Ferry) عام ١٨٨٥ في تصريح له في البرلمان الفرنسي، وقد عبرت عن ذلك جريدة (Christian Science Metor) فذكرت " إن رأس المال الأمريكي أكتشف في أفريقيا قارة من ١٥٠ مليون مستهلك ومصادر لا تنضب من المواد الخام"

و هذا يفسر لنا السبب في أن الدول الأفريقية حين استقلت وجدت نفسها عاجزة عن استغلال مواردها الطبيعية فقد كانت بحاجة للخبرة الفنية والتدريب وإلى غير ذلك من المقومات الأساسية لقيام ونجاح الصناعات الوطنية وهو ما حرص الاستعمار على عدم إتاحة الفرصة لأبناء المستعمرات لاكتسابه.

(٧) تكوين المستعمرات السكنية كدافع للاستعمار:

تذرعت بعض الدول الأوروبية الكبرى كفرنسا وألمانيا بان الاستعمار ضرورة فرضتها ظروفها لتكون المستعمرات كمصرف للزائد من سكانها الذين ضاقت بهم رقعة بلادهم .

فالكاتب الفرنسيون والألمان أخذوا يتحدثون من فرعين من المستعمرات :

أ) مستعمرات سكنية بغرض الإقامة الدائمة بها .

ب) مستعمرات استغلالية للأغراض الاستغلالية التجارية.

وقد دفعت بعض النظم الاجتماعية الجديدة فى المجتمع الصناعي الأوروبى بالإضافة إلى الصراعات السياسية والدينية فى أوربا بالبعض إلى الهجرة من أوطانهم •

وقد وجدت بعض الدول الأوروبية أنه لى لا تفقد زهرة شبابها الذين كانوا يهاجرون للخارج ويقطعون صلاتهم بأوطانهم أن تحل هذه المشكلة بأن توجد مستعمرات سكانية ترتبط بالوطن الأم يهاجر إليها أمثال هؤلاء الشبان وبذلك تبقى صلتهم بالوطن الأم مستمرة. ولكن ثبت أن ادعاءات هذه الدول بحاجتها الماسة للمستعمرات السكانية ليست صحيحة بدليل أن هذه الدول لم تجد من أبنائها من يرغب بمحض إرادته فى أن يهاجر وأضطرت الحكومات إلى إرسال المجرمين والمحكوم عليهم فى قضايا جنائية وغيرها من غير المرغوب فيهم للمستعمرات •

هذا على أن النهضة الصناعية الأوربية امتصت فى الحقيقة معظم الأيدى العاملة فى هذه البلدان •

٨) دوافع ظاهرية تذرعت بها الدول المستعمرة:

ادعى بعض الكتاب السياسيين الفرنسيين والانجليز وغيرهم بأن دولهم لها رسالة فى نشر المدنية فى الجهات غير المتحضرة من القارة الأفريقية، فقد كان رودس مثلاً يردد القول بأن خير الإنسانية يتحقق بان يمد الجنس الأنجلو سكونى نفوذه على أكبر مساحة ممكنة •

لكن ظهر أيضاً من الكتاب الأوربيين أنفسهم من وجد لديه الشجاعة الكافية ليسخر من هذا الإدعاء فى عام ١٨٨٥ كتب بعض الكتاب الفرنسيين مقالات يسخرون فيها من سياسية بلادهم الاستعمارية ومن ادعاءات رجال السياسة عن المهمة الإنسانية التى تقوم بها فرنسا فى أفريقيا، وذكروا أن مهمة فرنسا فى بلد كالجائز انحصرت فى تعليم العرب هناك شرب الخمر الرديئة وطائفة اخرى من الرذائل لم يكونوا يعرفونها.

على أن رجال السياسة الاستعماريين أنفسهم لم يجدوا بعد ذلك ما يدعوهم لأن يسدلوا على أعمالهم الاستعمارية هذا الستار الإنسانى فمثلاً نجد لوجارد (Lugard) وهو من الاستعماريين البريطانيين يصرح سنة ١٨٩٢ بان الاستعمار الإنجليزى فى أفريقيا تدعو له

مصالح إنجلترا الحيوية الخاصة بمواجهة الزيادة في منتجاتها ، ففي أفريقيا مجال طيب لتوزيع الفائض من هذه المنتجات ولتنمية التجارة الإنجليزية .

وبالمثل في فرنسا نجد الكاتب الفرنسي دارسي (Darcy) يذكر سنة ١٩٠٤ " إن توسيع الدولة خارج حدودها أصبح شرطاً أساسياً لقيام ودوام هذه الدولة، ففي عصرنا هذا من لا يتقدم ويسبق يتأخر ، ومن يتأخر لا بد من أن يغرقه الطوفان.

وفي عام ١٩٢٣ صرح وزير المستعمرات الفرنسي اليرت سرو (Albert Serrate) بأن الاستعمار لم يكن إلا حملاً من أعمال القوة دعت إليه المنافسة المتزايدة بين الأفراد والجماعات " وهكذا لم تصبح هناك ضرورة للبحث عن أعذار شكلية تتذرع بها الدول الاستعمارية لتبرر عملياتها الاستعمارية.

وسنحاول أن نتتبع الدور الذي لعبته كل دولة استعمارية أوروبية في القارة الأفريقية وسياسة هذه الدولة، ووضع الأفارقة في ظل هذا الاستعمار وموقفهم من المستعمرين.

الفصل الرابع

الكشوف البرتغالية للقارة الأفريقية

- دوافع الاستعمار البرتغالي
- رحلات البرتغال الكشفية
- (رحلة هنرى الملاح- ديجو كم- بارثليميودياز - بدرو دى كوفيلهام- فاسكوداجاما)
- البرتغاليين على سواحل أفريقيا.
- النظام البرتغالي فى الكونغو وأنجولا.
- النظام البرتغالي فى موزمبيق وشرق أفريقيا.

دوافع الاستعمار البرتغالي في أفريقيا

افتتح البرتغال صفحة الاستعمار في أفريقيا باحتلالهم قلعة سبته المغربية في عام ١٤١٥ وكان البرتغال في ذلك الوقت تحت - حكم يوحنا الأول ويرجع سبق البرتغال غيرهم من الأوربيين في استعمار أفريقيا يرجع ذلك لعاملين:

أولاً : عامل تاريخي:

فقد كانت شبه جزيرة ليبيريا محتلة من العرب وخلدت كذلك لعدة قرون ولما بدأت شعوب شبه الجزيرة تنشط في مقاومة العرب بعد أن تفككت الدولة الأموية في الأندلس وانقسمت إلى دويلات _ استطاعت البرتغال أن تستكمل استقلالها في القرن الثالث عشر وقاما بها ملكية فنية بينما ظلت أسبانيا حتى القرن الخامس عشر تطارد العرب إلي أن سقطت غرناطة آخر معاقل العرب في عام ١٤٩٢، وهكذا أتاحت الفرصة للبرتغال للاتجاه خارج بلادهم قبل غيرهم.

كما أن الملكية الفتية في البرتغال وجدت أن استمرار تعقبها للعرب الذين نزحوا من شبه جزيرة أيبيريا إلى ثغور شمال أفريقية يدعم مركز هذه الملكية كذلك فإن الحروب ضد المسلمين أعطت البرتغال دفعة دينية حتى في الوقت الذي كانت فيه الحماسة الدينية الذي صاحبت الحملات الصليبية قد فترت، والدليل على ذلك أن الملك يوحنا ملك البرتغال صرح بأن الميدان الحقيقي الذي يكتسب فيه أصحاب البيت المالك الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين في المغرب وأنه سيمنح أكبر وسام في بلاده لمن يجاهد في هذا الميدان - وكان هذا الشرف من نصيب هنري الذي عرف باسم(هنري الملاح) الابن الثالث للملك.

ثانياً : عامل جغرافي:

ويتمثل في موقع بلاد البرتغال وقربها من السواحل الأفريقية وكانت المسافات في ذلك الوقت لها أهميتها.

وقد روادت هنري فكرة الحملات البحرية للقارة الإفريقية بهدف الوصول إلى غانا التي اشتهرت بعلاقاتها التجارية مع المسلمين، وكذلك الوصول إلى إثيوبيا المملكة المسيحية الأفريقية

التي لم تكن لدى الأوروبيين معلومات كثيرة عن موقعها • لكن شاع في أوروبا الحديث عن ملكها المسيحي الذي عرف باسم يوحنا وذلك بهدف التعاون بين البرتغال وهذا الملك المسيحي لتطويق المسلمين للوصول إلى منتجات الشرق التي تدر على البلان الإسلامية — ودولة المماليك بالذات التي كانت تمثل القوة الإسلامية العظيمة في ذلك الوقت - أرباحا طائلة.

رحلات البرتغال الكشفية:

وقد أهتم هنرى الملاح بتقوية اسطول البرتغال وإنشاء مدرسة بحرية وجلب لبلاده عددا كبيرا من الفلكيين ورسامى الخرائط والبحارة من ايطاليا وصقلية.وقد توالى رحلات البرتغال إلى ساحل أفريقيا الغربى بعد فتح سبته فى عام ١٤١٥ فاحتلوا جزر كناريا وجزر ماديرا، والرأس الأبيض ووصلوا إلى مصب السنغال والرأس الأخضر • واهتم البرتغال بإنشاء الحصون و القواعد على الساحل الغربى للقارة لخدمة أغراضهم التجارية والاستعمارية

وفى عام ١٤٨٤ وصل الرحالة البرتغالى ديجوكم (Diego Cam) إلى الكنگو وحاول البرتغال التوغل للداخل وفرض سيطرتهم عليها و نشر ثقافتهم ولغتهم فيها — لكن باءت هذه المحاولات بالفشل فلم يستطيعوا السيطرة على الكنگو سياسياً كما لم يكن لهم أثر ثقافى، واضطر رجال الدين الذين وفدوا للتبشير فى هذه الجهات ، كما اضطرت التجار البرتغال لأن يعودوا أدرجهم ، وتعتبر هذه من أولى المحاولات الجادة للاستعمار الاستيطاني الأوربي فى القارة الأفريقية ، وظلت الكونغو كذلك حتى كشفت رحلات ستانلى النقب عن ثروتها الطبيعية فاتجهت إليها أنظار المستعمرين الأوربيين •

وتركزت جهود البرتغال بعد نلك فى المنطقة الواقعة جنوب الكنگو عند ميناء لواند (Luanda)وكانت هذه هى نواة مستعمرة أنجولا البرتغالية التي اشتهرت فيها بعد كمركز من أهم مراكز تصدير الرقيق الأفريقي إلى البرازيل بالذات واشتهرت فى تاريخ البرتغال الاستعماري باسم الأم السوداء إشارة لشهرتها فى إمداد البرتغال بحاجتها من الرقيق.

وفى عام ١٧٨٦ رحل الرحالة بارتيليمودياز (Bartholemeu Diaz) إلى الطرق الجنوبي من القارة عبره لسافة قصيرة فى جو عاصف فاطلق عليه اسم (رأس العواصف).كانت الفكرة التي تراود البرتغال منذ بدأت رحلاتهم البحرية هي أن يحيطوا بالقارة ويصلوا للهند.

وفى سنة ١٤٨٧ وصل لممصر الرحالة البرتغالى بيدرودى كوفيلهام (Pedro De Coviikam) وكان يعمل لحساب الملك البرتغالى، ثم سافر هذا الرحالة عن طريق البحر الأحمر لمدن وللعدن والهند تفي أثناء عودته زار بعض الإمارات العربية فى الساحل الشرقى لأفريقيا وقد فتحت رحته العيون إلى أهمية هذه الإمارات العربية بشرق القارة وكانت معلوماته أساسا للرحلة التي قام بها فيما بعد فاسكودا جاما (Vasco De Jama) حول رأس الرجاء الصالح.

فقد قام فاسكو داجاما فى ١٤٩٧ برحلته فى أربع سفن ووصل إلى نهاية القارة وعبر رأس العواصف التي غير اسمها إلى رأس الرجاء الصالح إلى الساحل الشرقى حيث وزاهرة، وبارشاد الرحالة العرب وصل إلى (كلكوت) على ساحل الهند الغربى، ودعا إلى لشبونة.

وتتابعت بعد ذلك رحلات البرتغال فى هذا الطريق واسطدموا بالإمارات العربية فخضعت لهم سفالة ، وكلوه ، وممبسه وغيرها من المراكز التي كان يستقر بها العرب ، واستولى البرتغال على موزمبيق عام ١٥٠٧ واستقر عدد منهم بها وحصنوها وتوسعوا فى المناطق المحيطة بها فأصبحت مركزا هاماً لهم بشرق القارة وعينوا حاكماً لهم بها كما أصبحت انجولا مركزهم بغرب القارة .

البرتغاليون على سواحل أفريقيا

كان وصول البرتغاليين إلى سواحل القارة الإفريقية قد بدأ منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر ؛ أي فى نفس الوقت الذى بدأت فيه عملية الكشوف الجغرافية من أجل الوصول إلى الهند . وبدأ الاحتكاك الأول بين البرتغاليين والقارة الإفريقية بهدف الحصول على ما يلزم سفنهم ، فى محاولتها الوصول إلى الشرق الأقصى ، من مياه ومؤن : ثم تطور الأمر إلى إنشاء مراكز تجارية برتغالية على طول الساحل الأفريقى الغربى فى اتجاه الجنوب ، ثم ساحل القارة

الإفريقية الشرقية ، في الاتجاه صوب الشمال ، وصوب خليج عدن، وأصبحت هذه المراكز التجارية جيوباً أوروبية على الساحل ، بدأت منها عملية الحصول على ثروات القارة ، متمثلة في الذهب وبقية المنتجات الإفريقية مثل العاج والأبنوس وريش النعام ، ثم أصبحت بعد ذلك مراكز لاستعمار القارة، والانتشار منها صوب الداخل ، وكذلك مراكز للعمل على صيد الأفارقة، وبصفتهم من العبيد. وعلى هذا الأساس سنسير مع البرتغاليين ، خطوة بخطوة ، وفي اتجاه ملاحه سفنهم ، وإنشائهم لمراكزهم . وقيامهم بنشاطهم ، إلى أن يأتي أوروبيون آخرون، ويحاولون الاشتراك معهم في نفس العملية .

وصل البحارة البرتغاليون إلى منطقة رأس الأبيض ، ثم إلى رأسكاترين منذ عام ١٤٠٨ . ومنذ ذلك الوقت بدأ نشاطهم من أجل مد سلطتهم على هذه السواحل ، وحتى منطقة الكاميرون، وسان توماس ؛ وأعلن ملك البرتغال مشاركة ملكيته لهذه السواحل ، وبطول ألفي ميل، وأطلقوا على كل هذا الساحل اسم ساحل غانا ، وكان معنى ذلك عدم السماح لغيرهم من الأوربيين بممارسة حقوق على هذه المنطقة دون إذن منهم، وبنوا هذا الحق على أساس أسبقيتهم في الوصول قبل غيرهم، ورفعوا علمهم ؛ الذي رسم عليه صليب كبير ، على نقاط مختلفة من هذا الساحل .

وكانت هذه المنطقة الشاسعة، ولم يكن في وسع البرتغاليين تغطيتها بسلطة فعلية، على الأراضي وعلى الأهالي الذين يعيشون فيها. كما كان المناخ حار ومرتفع الرطوبة ، فاكتفى البرتغاليون بإنشاء سلسلة من الحصون ، منتشرة على طول الساحل ، تستخدم كمحطات للسفن البحرية ، يستزودون فيها بالمياه ومواد التموين ، أو تصلح فيها بعض أمورها، قبل أن تواصل سفرها ، ومنحهة دائماً صوب الجنوب ، وصوب رأس الرجاء الصالح .

وعلينا أن نقرر بأن قوة البرتغاليين الاستعمارية في هذا الوقت ، والهدف التجاري الضخم الذي كانت تهدف إليه، بالوصول إلى تجارة الهند ، والسيطرة عليها وانتزاعها من أيدي المسلمين ، كان لا يسمح لها بإقامة نظام استعماري قوى على هذه السواحل الإفريقية، فلم يكن التملك يغريهم بنفس درجة إغراء التجارة لهم . وكانت هذه الحصون مراكز تجارية، حاول فيها البرتغاليون الدخول في علاقات تجارية مع بعض زعماء القارة الإفريقية ورؤساء القبائل ، القريبين

من الساحل ، حتى يتمكنوا من أن يحصلوا عن طريقهم على منتجات وموارد القارة الأفريقية ، وحسب درجة احتياجهم إليها ، و كان وصول البرتغاليون إلى السواحل الإفريقية، ومعهم البنادق والغدارات يعنى مواجهة الأفارقة منذ هذا العصر ، وبالتحديد منذ النصف الثاني من القرن لخامس عشر ، لقوة الأسلحة النارية ، والتي كان أبناء القارة لم يشهدها من قبل.

ومن ناحية ثانية نجد أن عملية وصول البرتغاليون ارتبطت كذلك ومن يومها الأول ، بتلك الحركة التي نادى بضرورة إدخال الشعوب الضائعة في هداية المسيحية ، وضرورة تطويق العالم الإسلامي من الجنوب ، وإقامة مجموعات من الأفارقة المسيحيين في هذه المناطق. وخدم سلاح الدعاية أو السلاح المعنوي الأسلحة النارية، حركة وصول البرتغاليون إلى هذه المناطق ، والسلاح المادي وهر وساعدهم على التفوق في كل منطقة ينزلون إليها .

ولقد قامت بعض الحركات ، في ذلك الوقت ، لتوضين بعض البرتغاليين في هذه المواقع والحصون البرتغالية ، ولكن صعوبة المناخ وقلة أعداد البرتغاليون الراغبين في التوطن هناك وقلة إمكانية دفاع الدولة عنهم ، أدت إلى فشل هذه المحاولات المتتالية ، وكانت الرغبة في الحصول على الثروات ، وبطريق سريع ، تنفع البرتغاليين إلى الحركة ، وإلى الهجوم، وكذلك إلى استخدام العنف والشدّة ، حتى يتمكنوا من الحصول على المكاسب في أقل وقت ممكن، والعودة بها إلى بلادهم . ولكن الدولة البرتغالية احتكرت التجارة مع هذه المناطق ، ومع القبائل الأفريقية الموجودة فيها فكانت ترسل بعض الأقمشة وبعض المصنوعات الزجاجية أو المعدنية. كوسيلة للمقايضة ، من أجل الحصول على الذهب والصمغ والعاج وريش النعام ، وحتى من أجل الحصول على الدقيق.

ولقد امتدت هذه الحصون على طول الساحل الأفريقي الغربي ، وكانت أشهرها هي حصون أرجوين، وسان توما ، وسان جورج دى مينا، ثم سانتياجو .

وكانت منطقة غرب إفريقية هي أولى المناطق التي وصل إليها البرتغاليون، وكانت جزيرة أرجوين هي جزيرة صغيرة قرب الساحل ، وفي مواجهة رأس الأبيض . . وكان هذا الحصن هو نقطة التمركز التي ساعدت البرتغاليون على البدء في التعامل مع منطقة السودان الغربي ، وحتى تتبكتو ، والتي حاولوا الوصول إليها منذ السنوات الأولى النزولهم فى هذا الموقع . وسوف

تأخذ هذه الجزيرة أهمية كبيرة ، فيما بعد ، وخاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وفى الوقت الذي تزدهر فيه تجارة الرقيق بين القارة الأفريقية والعالم الجديد ، وبعد أن أحد البرتغال صعوبة في حصولها على كميات ضخمة من الذهب من منطقة غرب إفريقيا وأصبح هذا الحصن يرسل ألف عبد في كل عام إلى البرتغال ، أو إلى المواقع البرتغالية الأخرى.

البرتغاليون في غرب أفريقيا :

وإلى الجنوب من ذلك ، نصل إلى جزر الرأس الأخضر والتي تقع على الساحل الأفريقي فيما بين السنغال وسيراليون ، ومن هذه الجزر كذلك تمكن البرتغاليون من نشر ومد سيطرتهم على الساحل المواجه ، مما أدى إلى نشأة غينيا البرتغالية . وفي هذا النطاق ، تمت تجارب لتوطين بعض البرتغاليين في هذه المنطقة واحضرت حكومة البرتغال إلى جزر الرأس الأخضر بعض أبناء حشوة ، وذلك من أجل العمل في الزراعة ، مستخدمين فيها الأفارقة. وتم في هذا القطاع نوع من التخليط بين الأوربيين وبين الأفارقة وكانت الإدارة تختار من هؤلاء المخططين بعض الجنود والموظفين اللازمين لها لإدارة المستعمرة ، وكانت سانتياجو نقطة انطلاق نحو الداخل ، ونحو نمو التجارة مع العناصر الوطنية ، ونحو إنشاء مراكز وحصون برتغالية أخرى ، على طول سواحل أفريقية الاستوائية ، وحاولوا الانطلاق فيها كذلك نحو تنبكتو ، وحاولوا كذلك اتخاذها مركزاً لنشر المسيحية من الساحل صوب الداخل ، وبإسم هداية الأرواح الضالة.

ولقد استخدمت البرتغال فى هذه المناطق سلطتها المباشرة في الاتجار مع الأهالى ، وباسم الدولة وفى شكل سلطة احتكارية. وحين ضعفت سلطة الدولة ، عهدت الحكومة البرتغالية بهذه الحقوق إلى متعهدين برتغاليين ، يقومون بممارسة سلطتهم بناء على الصكوك التى يحصلون عليها من حكومة لشبونة . ولقد انتشرت اللغة البرتغالية من الساحل صوب الداخل بالتدريج ولكن بنسبة بسيطة ، وكذلك انتشرت الديانة المسيحية ، على المذهب الكاثوليكي ، ومن المخططين إلى بعض الزعماء الأفارقة ، وخاصة من ارتبطت مصالحهم بمصالح القادمين الجدد ، بمصالح المستعمرين ..

ولقد أخذ البرتغاليون مع بداية تعاملهم مع الأهالي في وضع ما يمكن تسميته بالسياسة الأفريقية تجاه الوطنيين ، ولكن علينا أن نذكر أن نفوذ البرتغاليين كان بسيطاً وكذلك درجة نجاحهم في التعامل مع الأهالي ، حتى أن مواصلاتهم بين هذه الحصون وبعضها أى بين سان جورج دى مينا ، وسان ميشيل وسانتياجو ، كان لا يتم إلا بالسفن ، وعن طريق البحر ، ومعنى ذلك أن الاتصال البرى كان صعباً إما الطبيعة الأرض والمناخ ، وإما لعلاقاتهم بالأهالي ، ولا شك في أن بعض الجماعات المسلحة كانت تخرج من وقت لآخر من أحد هذه الحصون للذهاب إلى حصن آخر ولكن ذلك كان يهدف القوافل الكبيرة ، والاستيلاء عليها ، أو توجيه ضربات للقيادات الوطنية ، وكذلك صيد الأفارقة لبيعهم كعبيد.

وكانت البرتغال تحصل على كميات من الذهب من الساحل الأفريقي وبخاصة في منطقة غانا ، وكانت تحصل على ما تصل قيمته من هذا المعدن إلى مائة ألف جنيه في العام . أما الرقيق ، فكان يرسل من أرجوين ، وسان توما إلى سان جورج ، تمهيداً لإرساله إلى لشبونة ، أو إلى العالم الجديد ، وكانت سيطرة البرتغاليين ضعيفة على هذا الجزء من الساحل وعلى عكس الحال بالنسبة للجزء المواجه لمنطقة غينيا ، والذي نشأت فيه قلعة بيساو . وزاد في هذا القطاع أمر استغلال البرتغاليين : ومنذ القرن الخامس عشر ، لعملية التجارة في الموارد الأفريقية بشكل عام ، وفى العبيد بنوع خاص ، ودخل البرتغاليين في علاقات تجارية مع الرؤساء الأفارقة في منطقة بنيز ، وعملوا في هذه المنطقة على نشر اللغة البرتغالية ونشر الديانة المسيحية وحين زادت أهمية الاستعمار الأوربي في العالم الجديد وزادت الحاجة للأيدي العاملة ، شاركت هذه المنطقة على نشر اللغة البرتغالية ونشر الديانة المسيحية ، وحين زادت أهمية الاستعمار الأوربي في العالم الجديد وزادت الحاجة للأيدي العاملة، شاركت هذه المنطقة كذلك في تزويد البرتغال وغيرها من الدول الاستعمارية ، بالأيدى العاملة ، المشتراة والتي كانت ترسل إلى العالم الجديد في شكل رقيق أو عبيد .

الكونغو وانجولا :

وبعد غرب أفريقية ، واستمرار السفر في حذاء إفريقية الاستوائية ، وصل البرتغاليون إلى منطقة الكونغو ، وكانت هذه أول مرة يشاهد فيها الأهالي هذا النوع من السفن الضخمة ،

ويبدعون في التعامل مع مجموعات تستخدم الأسلحة النارية ، وبدأ الاتصال بين البرتغاليين في هذا القطاع وبسبب ملوك الكونغو ، والذين كانوا يقيمون على بعد مسافات معينة من داخل القارة ، واستخدم البرتغاليون في ذلك مجموعة من الرهبان ، وبدءوا بتقديم الهدايا ، ولكن هذه الحملات كانت تعود من الداخل ، ومعها أعداد من الرقيق ، تصل بها إلى مصب سب نهر الكونغو ، تمهيداً لإرسالها إلى لشبونة ، وبدأ هذا الاتصال منذ السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وانتهى بنوع من التفاهم بين البرتغاليين وبين ملوك الكونغو ، ولا شك في أن البرتغاليين قد قدموا للأهالي الإغيل ، مع بعض الهدايا من الخرز والمصنوعات الملونة، ولكنهم أخذوا من الأهالي أعلى المنتجات الأفريقية وكان أثنها هو الرجل الأفريقي نفسه ، وبصفته عبداً وكانت تعليمات ملك البرتغال تصر على الرسالة المسيحية للبرتغال في أفريقية ، ثم تصر كذلك على ضرورة ملء السفن بالعاج والعبيد.

ولقد وافق أحد ملوك الكونغو على بناء كنيسة في عاصمته ، وسمى . بإسم سان سلفادور ، وعين أبنه أسقفاً عليها ، ولكن العلاقات ساءت مع البرتغاليين في عام ١٥٣٩ ، ورفضوا له أمر إرسال ابنه إلى البابا ، ومنعوه من الدخول في علاقات مع غيرهم، وحتى مع البابا نفسه، مادامت البرتغال هي التي تشكر الكونغو ، وموارد الكونغو ، ولقد زادت سيطرة البرتغاليين على هذه المنطقة وزادت العمليات الحربية فيها ، حتى سيطروا عليها سيطرة كاملة في القرن السابع عشر ، ورغم المجهودات الكبيرة التي بذلها رجال الجماعات المسيحية ، وجماعات التنصير، إلا أن انتشار المسيحية ، وكذلك انتشار اللغة البرتغالية كان محدوداً للغاية، وكان يسير مع القيادات التي ارتبطت بمصالحها بمصالح المستعمر البرتغالي.

أما فيما يتعلق بأشمولا فإن أهميتها قد زادت بالنسبة للبرتغال ، حتى احتلت المكانة الأولى بدلاً من الكونغو عند نهاية القرن السادس عشر ، وهنا أيضاً بعد أن البرتغاليين قد اهتموا بنشر الدين المسيحي ، وإن كان البرتغاليون قد استخدموا نظام الحكم غير المباشر ، أي بعض القيادات الأفريقية نفسها في حكم بقية الإفرقيين، وبعد حروب كثيرة وصغيرة ، وحملات لصيد العبيد ، أخذ البرتغاليين في تقسيم الجولا إلى مناطق بين القيادات الأفريقية المواليين لهم، يقومون بإدارتها والدفاع عنها ، وباحتكار حق التجارة فيها ، وذلك في نظير تقديمهم لكميات محددة من المنتجات الأفريقية ، وأعداد ثابتة ومتزايدة من العبيد

ولقد حاولت البرتغال أن تقوم بعملية توطين في انجولا ، واستقدمت بعض الأسر من الفلاحين ، وأعطتهم بعض السلفيات ، وأنشأت هناك بعض الحصون وبعض الكنائس ، ولكن هذه السياسة فشلت على طول الخط ، وقامت البرتغال بعد ذلك بتحويل أنجولا إلى مناطق لنفى المجرمين وأنشأت فيها بعض السجون . التي أخذت أعداد المجرمين واللصوص تتزايد فيها ، كما نفت إليها الحكومة البرتغالية الكثير من المتسولين ، والجنود المتمردين ، وكانوا يزوجونهم ببعض الساقطات قبل تصديرهم من موانئ البرتغال إلى القارة الأفريقية . ولم يكن من السهل على مثل هذه المجموعات أن تتمكن من إقامة « مجموعة أوروبية » لها اعتبارها على القارة الأفريقية ، وبذلك اعتبرت تجربة الاستعمار البرتغالي في انجولا تربة فاشلة ، وظلت حكومة البرتغال تحكمها بقوة السلاح ، دون أن تتمكن من رفع مستوى الأهالي فيها .

ولقد استمر نشاط البرتغاليين على مناطق الساحل الأفريقي . مع استمرار أنهم في الملاحة حول رأس الرجاء الصالح ، ودخولهم إلى المحيم الهندي ، وظور المان في موزمبيق ، وفي كلوة إلى الشمال .

النظام البرتغالي في موزمبيق وشرق إفريقية

ولقد وصل البرتغاليون إلى سواحل إفريقية الشرقية وهم في طريقهم إلى الهند ، ووجدوا أن تجارة الهند والشرق الأقصى هناك كانت مركزة في أيدي العرب والمسلمين ، ولذلك فإنهم قرروا ضرورة تخريب القواعد العربية والإسلامية في هذه المنطقة ، وكما شرحنا ، حتى يتمكنوا من السيطرة على التجارة . أما بالنسبة لكلوة ، تلك المدينة العربية المزدهرة ، فقد قام البرتغاليون بالهجوم عليها ، ثم نزلوا إلى شوارع المدينة ، حيث وقعت معركة حامية في الطرقات وحتى في المنازل ، وانتقل البرتغاليون فيها في عملية القتل وذبح الأهالي.

ثم استمرت العملية في شكل سلب ونهب لكل ما تصل أيديهم إليه ، ثم أشعلوا النيران في المدينة، وتركوها وهم مسافرون ، وكأنها حميم صغير ، بعد أن كانت مركز حضارة وازدهار. ولقد امتدت سلطتهم على طول الساحل الشرقي لإفريقية حتى رأس الجادو ، والتي أصبحت تمثل الحد الشمالي لهم ، أما في الجنوب منها ، فإنهم جعلوا موزمبيق المركز الرئيسي لسلطتهم، ولتجارتهم مع هذه المناطق وسرعان ما أصبحت موزمبيق هي مركز السفن التي تذهب

إلى الهند ، أو ترجع منها في طريقها إلى البرتغال ، ولقد سمع البرتغاليون فيها عن ثرائها نتيجة الوجود الذهب فيها . وإذا كان البرتغاليون قد حاولوا السيطرة على تجارة الشرق الأقصى من هذا الموقع ، إلا أن التهريب قد استمر بشكل واضح ، حتى أصبحت دوريات البرتغاليين تمثل عبئاً مالياً على الدولة .

ولقد شهد ساحل شرقي أفريقية ظهور حركة مقاومة وطنية عنيفة ضد مجيء البرتغاليين ، وقام الزعيم أمير علي في عام ١٥٨٥ ، بتجميع كل المدن الساحلية تحت قيادته في حركة كفاح وطني ضد البرتغاليين ، ولقد تمكنت بعض قوات البرتغاليين ، ومساعدة بعض المجندين من قبائل الزمبا ، وكذلك عدد من العميد المسلحين ، من خاصرة القائد الإفريقي في مدينة ممية ، ولكنه تمكن من الهرب ، واستمر في جهاده ، حتى وقع في أيدي البرتغاليين ، ولقد قام البرتغاليون في عام ١٥٩٣ ، ببناء حصن يسوع ، على الساحل الشرقي لإفريقية ، ثم جاءت الوكالات التجارية لكي تستقر في كل من كلوة وبمبا وزنجبار ، وتم قرب هذا العام إنشاء جمرک في مدينة مميسة ، لكي تمر فيها كل تجارة شرق أفريقية ، وبدأت من هذه المواقع عمليات تنصير بعض الأهالي .

وبعد إقامة بعض الحصون على الساحل بدأ البرتغاليون في إرسال حملات إلى الداخل ، لاستكشاف أماكن وجود الذهب ، وكانت هذه الحركة تهدف في نفس الوقت أمر القضاء على قوافل العرب والمسلمين التي تسير في داخل القارة وهكذا أصبحت موزمبيق أحد المواقع الرئيسية ، والتي تنتشر فيها سيطرة البرتغال على شرق أفريقية ، وجنوب هرمز ، عند مدخل الخليج الفارسي ، وصوب الهند نفسها . وكان بعد موزمبيق عن لشبونه يعطى الحاكم العام البرتغالي فيها سلطان واسعة ، وإن كان يمارس هذه السلطات تحت سيطرة نائب الملك المعين في الهند . وكانت لديه في موزمبيق قوات عسكرية ، وبعد بناء حصن سان سباستيان في عام ١٥٥٠ ، أصبح هذا الموقع العسكري هو المسيطر على بقية المواقع العسكرية البرتغالية على طول الساحل الشرقي للقارة الأفريقية ، وتم بناء كنيسة ومستشفى داخل هذا الحصن .

ولقد تمكن البرتغاليون من إنشاء بعض المواقع في الداخل ، منذ عام ١٥٥٠ مثل تيتي والتي كانت تبعد عن الساحل بمسافة ٢٥٠ ميلاً وكانت مركزاً لتجارة الذهب من الداخل ، وكذلك

بعض الوكالات التجارية وخاصة في كليمانى ، ولقد اهتم لورنز وماركيز بهذا القطاع من المستعمرات البرتغالية ، وشجع فيه التجارة في الذهب والعاج.

وحين وصل الملك سباستيان إلى عرش البرتغال ، فى عام ١٥٦٨ أخذ يفكر فى ضرورة إنشاء مستعمرة كبيرة فى هذه المنطقة من شرق أفريقية واستخذه الحملات العسكرية من أجل التوغل صوب الداخل ورغم المعارضة الشديدة التى لقيها فى مجلس البلاط ، أصر الملك على ضرورة الزحف صوب الداخل ، والسيطرة على مناجم الذهب ، وطرد العرب والمسلمين منها ، وتدعيم وجود البعثات الدينية المسيحية ، ولقد تمكن فى العام التالى من إرسال حملة عسكرية ، بقيادة فرانشيسكو باريتا ، إلا أنها صادفت الكثير من المصاعب ، مثل كثرة الأمطار والحميات ، ومقاومة الأهالى ، ولقد أدى هذ الصراع مع الأهالى إلى ضياع معظم رجال الحملة ، والذى لم يعد منهم إلى الساحل وبعد عام كامل سوى مالتى رجل وبعد أن مات قائد الحملة بالحمى.

وبعد ذلك خمس سنوات خرجت حملة برتغالية جديدة فى عام ١٥٧٤ صوب منطقة وسارت صوب الداخل ، وصوب مناطق استخراج الذهب ، ولكن هذه الحملة وجدت أن استخراج البرتغاليين أنفسهم للذهب سيكلفهم أكثر من شرائه من الأهالى ، بطريق مباشر ولقد اتجهت هذه الحملة بعد ذلك شمالاً . الزمبىزى ، وفكر رجالها فى العمل فى استخراج الفضة . هذه المنطقة ، ولكنهم فشلوا فى ذلك ، وبعد أن ترك القائد مائتى وحل الحراسة أحد المواقع ، حتى يعود من موزمبيق ، محم الأهالى على هذه الحامية الصغيرة ، وأفئوها عن آخرها وبذلك فقد التاج البرتغالى كل أمل فى استخراج الذهب والفضة من المناطق الداخلية الشرق أفريقية ، واكتفى بفرض ضريبة معينة على ملوك هذه المناطق ، وتركيم يستخرجون المعادن النفيسة بأنفسهم ، وكانت بعثات هؤلاء الملوك تصل إلى موزمبيق ، كل ثلاث سنوات، وتقدم الضرائب للبرتغاليين ويقدم لها البرتغاليين هدايا رمزية من المنسوجات القطنية ومن الخرز.

ومع مرور السنين واستمرار العمل بنظام احتكار الدولة للموارد تطور النظام إلى عمليات منجمة للتهريب ، وحتى من جانب ضباط الدولة ، وقاطين سنتها أنفسهم ، فاضطرت حكومة البرتغال إلى أن تعهد بمنح أجزاء من هذه المستعمرة وغيرها من المستعمرات كذلك إلى شركات برتغالية ، تحصل على تصريح بالعمل فى هذه المناطق ، تغير تقديمها مبالغ سنوية محددة .

الأموال للدولة ، وكانت الشركة التي حصلت على حق العمل في هذه المنطقة هي شركة شرق أفريقية التجارية، والتي قدمت قيمة من أرباحها إلى حكومة لشبونة كل عام. ولكن هذه الشركة خضعت كذلك وفي القرن السابع عشر لهجمات شركات استعمارية من أخرى ، قامت دول أوروبية أخرى مثل إنجلترا وهولندا بإنشائها ، كما حضت العوامل الضعف والانحراف التي سادت في هذا المجتمع الاحتكاري فتم حلها بعد مرور عشرين عام فقط على تأسيسها.

وأخيراً ، وفي ظل هذا النشاط البرتغالي الضخم على سواحل القارة الأفريقية سواء في غرب أفريقية ، أو في مناطق الكونغو وأنجولا وكذلك في مناطق موزمبيق وسواحل أفريقية الشرقية . علينا أن نذكر ذلك الدور الذي قامت به البعثات المسيحية وفي شكل صاحب ومن أجل هداية النفوس وكسب الأهالي إلى الإنجيل والدين المسيحي ، ولا شك في أن هذه الحركة كانت قوة دعم وتأييد معزوق المساعدة حركة الاستغلال المادى والتجارى، والتي قام بها رجال الاستعمار البرتغاليين ، من أجل نهب القارة الأفريقية ، ونهب الرجل الأفريقي .

وفي هذا المجال ، وبعد أن وصلت البرتغال إلى موارد القارة الأفريقية ، وبعد أن كانت سفنها قد وصلت إلى الهند، جاءت دول أوروبية أخرى لكن تنزل إلى نفس الميدان ، وتقوم بدورها بالالتفاف حول القارة الإفريقية ، وكما فعل البرتغاليون ، من أجل الوصول إلى نصيب في التجارة العالمية بين الشرق والعرب : وستقوم هذه الدول بالاحتكاك كذلك بالقارة الإفريقية، حتى تتمكن من أن تصل على نصيب من موارد هذه القارة .

وإذا كان البرتغاليون قد احتكروا القارة الإفريقية في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، فإن طلائع الدول الأوروبية الأخرى سوف تصل إلى هناك مع القرن السابع عشر .

وإذا كانت وسائل عمل البرتغاليين ، والتي تتمثل في فرض نظام الاحتكار هو المنهج الذي سارت عليه البرتغال ، لاحتكار التجارة والموارد ، فمن الطبيعي أن يكون شعار القادمين الجدد هو حرية التجارة والباب المفتوح للجميع ، أى الحرية الأوربيين، وفي عملية استغلال الأفارقة وأبناء الهند والشرق الأقصى ، إنها الشركات الاستعمارية الأوروبية ، وفي عصر سيادة

التجارة وحرية التجارة ، حتى في البشر ، وفي شكل استرقاق الآدميين ، والتعامل معهم على أنهم
عبيد ، وبقوة الأسلحة النارية والبارود.

الفصل الرابع

التنافس الأوروبي على قارة أفريقيا

- الشركات الاستعمارية الأوروبية.

١- الإسبانيون

٢- البرتغاليون والإنجليز والفرنسيون

٣- الشركات الهولندية

٤- الشركات الإنجليزية

٥- الشركات الفرنسية

في الوقت الذي عملت فيه البرتغال على الالتفاف حول القارة الإفريقية للوصول إلى الشرق الأقصى كانت هناك محاولات من جانب دول أوروبية أخرى مثل أسبانيا ، حاولت بها الوصول إلى الشرق الأقصى عن طريق الملاحة صنوب الغرب ، حقيقة أن هذه المحاولات كانت لا تمس تاريخ القارة الأفريقية بشكل مباشر ، ولكنها كانت تمثل منافسة واضحة للبرتغال ، والتي أصبحت لها مصالح على سواحل القارة الأفريقية، ومع انتشار حركة التوسع الاستعماري في العالم، نجد أن هناك منافسين حدد قد ظهوروا أمام البرتغال وأسبانيا ، وأن هؤلاء المنافسون كانوا يمثلون دول غرب أوربا ، والتي نزلت إلى ميدان التوسع الاستعماري كذلك، وبخاصة في القرن السابع عشر ، وإن كانت قد عملت في هذا الميدان بطرق ووسائل ونظم مختلفة عن تلك التي كان البرتغاليون ثم الأسبان قد وضعوها لأنفسهم : المنافسة إلى نشأة شركات استعمارية أوروبية .

١- الأسبانيون :

بدأ الإسبانيون تجربتهم الاستعمارية في العالم في عهد فرديناند و ايزابيلا ، ونجح كريستوف كولومب ، وهو بحار من جنوا ، في أن يحصل منها على مساعدة وعينوه أميراً للبحر ، ونائباً للبحر، ونائباً للملك على كل البلاد التي يتم اكتشافها ، وكذلك الحق في عشر الجواهر والذهب والفضة والتوابل وأي سلع يجدها في البلاد التي يتم اكتشافه ١٩ ، وقد وعدهما كريستوف كولومب بأن يستخدم الكنوز التي يجدها في عملية تخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، وكانت التجارة وعمليات النهب تسير جنباً إلى جنب مع الوعود المقدسة ، وفي ظل إيمان عميق .

ولكن كريستوف كولومب ، صار متجهاً إلى الغرب ، لم يصل إلى الهند ، ولم يصل إلى الصين ، ولا بلاد الذهب ، بل وصل إلى إحدى جزر البهاما في شمال كوبا، وكانت هذه الجزر ، وهي جزر الهند الغربية ، بداية التحرب التوسع الاستعماري الأسباني في العالم الجديد، وبخاصة في أمريكا اللاتينية وحيث لا تزال البصمات الحضارية الأسبانية موجودة حتى الآن. فلقد ورت الإسبانيون إمبراطورية الإنكا ، وإمبراطورية الإزائكة ، وأنشئوا المستعمرات واختلطوا بالهنود الحمر ، ونشأت مجموعات وشعوب مخلطة ، وجاءوا إلى أمريكا اللاتينية بأعداد ضخمة من الزنوج الأفارقة للعمل في المزارع هناك .

ويهمننا من ذلك أن نزول أسبانيا إلى ميدان التوسع الاستعماري ، في نفس الوقت الذي عمل فيه البرتغاليون في هذا الميدان ، كان يمثل تنافساً واضحاً بين الدولتين ، وكان البابا قد منح البرتغال كل الأراضي التي تقع على طريق الهند وأرسل الملوك الكاثوليك من أسبانيا بدورهم إلى الفاتيكان ، لكي يشرحوا للبابا أن ممتلكاتهم الجديدة هي انتصار كبير للمسيحية ، ولكي يطلبوا من الأقاليم ، ولقد وافق البابا اسكندر السادس ، وكان أسبانياً على هذه الطلبات وأصدر مرسوماً منح به ملك وملكة أسبانيا الامتيازات المماثلة لتلك التي أعطاها لملك البرتغال في اكتشافاتهم الجغرافية.

ثم أصدر بعد ذلك مرسوماً ثانياً لمنع أى طعن من هذا الجانب أو ذاك وقسم الإمبراطوريتين البرتغالية والإسبانية بخط يمر من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، على بعد مائة فرسخ إلى الغرب من جزر الخالدات والرأس الأخضر ، فأصبح كل ما يقع إلى غرب هذا الخط من نصيب أسبانيا ، وكل ما يقع إلى الشرق منه من نصيب البرتغال . وبعد أن طعنت برشلونة في هذا التقسيم حصلت من أسبانيا ومن البابا على مرسوم جديد ، نقل خط التقسيم إلى ثلاثمائة وستين فرسحاً إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر، وذلك في عام ١٤٩٤، وهكذا استمرت الطرق الغربية في أيدي الأسبانيين والشرقية في أيدي البرتغاليين، ولكن أحداً لم يفكر في ذلك الوقت في أن هذا الخط سوف يمر على أمريكا الجنوبية ويقسمها وبشكل يجعل واجهة هذه القارة، وهي البرازيل مستعمرة برتغالية، لقارة سوف تصبح كلها من المستعمرات الإسبانية.

ولقد تميز الأسبانيون في أمريكا بالعنف والقسوة، وانتصروا هناك على الهنود الحمر، وكذلك على البعوض والزواحف والحميات ووحوش الغابات، وكانوا قد لمرسوا القسوة في حروبهم ضد المغاربة وضد المسلمين، قبل طردهم من بلادهم وسمحوا لأنفسهم في العالم الجديد بكل شيء وبدون تردد.

وكما كانت عمليات البرتغال منظمة بمرسومات ملكية تصدر من لشبونة وتخضع هذه العمليات لسلطة الدولة وضباطها ومفتشيها وكبار الموظفين فيها، كانت كذلك مشروعات الإسبانيين في عملية التوسع في أمريكا الوسطى والجنوبية فكانت هناك المراسيم الملكية، وكانوا ينزلون إلى الأراضي وهم يحملون علم الدولة ويعلنون ضم الأراضي للدولة، وقيمون حكماً هنا وهناك خاضعاً لدولة إسبانيا، وكان هدف الإسبانيين هو اكتشاف الأراضي الجديدة، والإقامة فيها

بأسبقية وأولوية الوصول إليها وحكمها، وكذلك استغلال الأراضي والمعادن النفيسة والمعيشة مع ألقاب نبل ضخمة، وفي ظل بحد يشير الغيرة، وامتدت هذه مشاركة الإمبراطورية من فلوريدا وكاليفورنيا، حتى شيلي، وعلى طول عشرة آلاف من الكيلومترات، وأفادت أسبانيا من هذا الخط الطويل من المستعمرات.

ولقد تمكن الإسبان من حكم هذه المناطق الشاسعة، بالسيف والنهب والقتل، وبغيرهما من الوسائل التي كانت سهلة وأسهل بكثير من إدارة وحكم شعوب غلبت على أمرها، ولم يتورع الاستبانيون عن أي وسيلة للوصول إلى أهدافهم، والتي كانت تتلخص في الحصول على الذهب وشحنه على السفن وكان الحكام الأسبانيون الأوائل يقسمون الكنوز بين الجنود، ويقسمون الأرض بين الضباط، ونقلوا نظم أسبانيا كما هي إلى هذه المناطق، ومع الزمن، حلت السلطة الملكية محل سلطة هؤلاء القادة والغزاة، وخضعت هذه المناطق الحكم أسبانيا، وكان هناك في قشتالة مجلس للهند وكان يشرف على الأمور العامة لهذه المناطق، وبعد القوانين لها، ويعتبر في نفس الوقت محكمة للاستئناف، ويتدخل في كل قرارات الكنيسة المتعلقة بالعالم الجديد. وفي أمريكا، وكان نائب الملك هو الذي يهيمن على شؤون السلم والحرب في البلاد.

ولقد شهد العالم مشكلة الهنود الحمر، ثم مشكلة قدوم الزنوج الأفارقة في شكل عبيد، وذلك في نفس الوقت الذي كانت هناك مشكلات الحكم الاستعماري الإسباني، والتنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية وبعضها. ولقد قضى على الأهالي بشكل كامل في مناطق بأكملها، كما حدث في هاياتي، وقام المدافعون عن الهنود الحمر وطالبوا الحكومة الإسبانية بضرورة المحافظة على أرواح الهنود الحمر دون أن يذكروا إن كان هدفهم هو السياسة، أو ضرورة الاحتفاظ بالأيدى العاملة اللازمة للمستعمرات، أو زيادة عدد السكان المسيحيين في العالم. ولقد تعاون التاج مع الكنيسة في عمليات التهدة، وإن كانت مشكلة العمل الإخباري، أو السحرة، ظلت موجودة، وتدخل التشريع من أسبانيا، وكان مشاركة دائماً في صالح العملية الاستعمارية. فاتجهت الأنظار إلى القارة الإفريقية لإحضار الزنوج والعبيد، حتى تتمكن القوى الاستعمارية من أن تستمر في عملية مدد من الاستغلال.

ولقد بحث المستعمرون الأسبان عن مناحم الذهب والفضة، وغسلوا رسال الأنهار لكي يحصلوا على التبر، ووجدوا بعض الذهب، وكثيراً من الفضة في المكسيك أولاً، ثم في بيرو بعد

ذلك. ووجدوا الزئبق في بيرو نفسها، واستخدموه في معالجة الذهب وفصله عن الفضة، فتزايدت كميات الإنتاج بشكل مذهل. وكانت المناجم ملكاً للتاج الذى يمنحها للمستغلين، والذين يتعهدون بتسليم الملك جزءاً من الإنتاج. وكان هذا المعدن ينقل بحرياً من بيرو إلى بنما، ثم على ظهور البغال لعبور البرزخ، والشحنه من جديد في سفن أسبانية متسعة وبطيئة، وحقق الإنتاج آمال أسبانيا، فكان يصل إلى خمسة أو ستة أطنان من الذهب، وثلاثمائة من الفضة في كل عام.

أما جزر الأنتيل فإنها لم تلعب أي دور للحصول على المعادن، واتجه المعمرون فيها إلى استغلال الزراعة، وبخاصة قصب السكر، وكان يعطى السكر والروم، وكان إنتاجه يصل في قيمته إلى ما يقرب من الذهب، ويقيم كذلك بالذهب. وكان ميدان الإنتاج الزراعى فى جزر الأنتيل وبلاد أمريكا الوسطى مورد دخل كبير للمعمرين الإسبانين .

وكانت كل منتجات أمريكا الأسبانية ترسل إلى أسبانيا نفسها، والتي احتفظت باحتكار التصدير والاستيراد والنقل مع المستعمرات، إلا فيما يتعلق بتجارة الرقيق، وحرمت على السفن الأجنبية الرسو في أمريكا، حتى ولو كان ذلك الإصلاح ما يصيبها من عطب. وقامت أسبانيا بعد ذلك يفتح عدد معين من الموانسى للتجارة، حتى تمنع التهريب. ولكن عمليات التهريب تزايدت مع الزمن، وبشكل واضح فكان التجار يحاولون التهريب من دفع الرسوم والضرائب: فلم يقتصروا على خفض قيمة التجارة المغتربة أو المشحونة فى تصريحاتهم الرسمية، بها بدعوا في عمليات التهريب، ووجدوا في داخل هيئة التجارة نفسها من يشاركهم في هذه العمليات، وبدأت السفن تفرغ حمولتها في البحر قبل دخولها إلى ميناء إشبيلية ويتشحن بضائع أخرى بعد خروجها من الميناء واتصل المهريون الإسبان مهريين أجنب، كانوا يقومون بنشاط كبير في خلجان العالم الجديد، الأمر الذى أدى إلى لقد كانت أسبانيا في منافسة واضحة مع البرتغال، ومن عمليات التهريب دلت على وجود منافسة من نوع جديد ضد سيطرة الدولة على التجارة والملاحة، وتقوم بها عناصر لا تخضع لسلطة الدولة الأسبانية، وربما حظيت حماية ثلث تجارة العالم الجديد من أيدي هيئة التجارة الإسبانية مقنعة من جانب دول أخرى في غرب أوربا.

ولقد تمكنت أسبانيا، في أثناء القرن السادس عشر السيطرة على جزء كبير من أوربا، وظهر ذلك بوضوح فى عهد شارل الخامس، أو شارلكان، حفيد الملوك الكاثوليكين، والذى سيطر على اسبانيا ونابولى وصقلية والمستعمرات الواقعة فيما وراء المحيط، وأضاف إليها بقية

إيطاليا والأراضي المنخفضة، الفلاندر وبعض مقاطعات فرنسا، والنمسا والإمبراطورية المقدسة. ولقد أصبح سيداً على عالم لا تغرب عنه الشمس، ووصلت أسبانيا إلى أوجها في عصر ابنه فيليب الثاني، والذي ضم إليه البرتغال مع ممتلكاتها الخارجية، بعد معركة وادي المخازن في المغرب الأقصى، فأصبح فيليب الثاني ملكاً على الشبونة وميلانو، وجنوا وبروكسل، وبالرمو ومكسيكو.

ولكن هذه العظمة من ناحية الحكم، عاصرت كذلك ظهور مبادئ الإصلاح الديني، وظهور المذاهب البروتستانتية، ثم هجرة الكثيرين من أبناء أوروبا إلى العالم الجديد، بحثاً عن حرية العقيدة. وإذا كان إسبانيا قد استعانت في ذلك الوقت بجماعة اليسوعيين الجزويت «من أجل نشر المذهب الكاثوليكي في المناطق الخاضعة لها فيما وراء البحار، وبخاصة في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، فإن نوع المهاجرين في أمريكا الشمالية كان يميل بشكل واضح في أغلبيته نحو أبناء مذاهب الإصلاح، والمذاهب البروتستانتية. وكما كانت هذه الإمبراطورية الإسبانية ضخمة وقوية، إلا أن قطع أوربية كثيرة من هذا البنيان الضخم كانت رقيقة ولا يمكنها أن تقاوم الأطماع الخارجية، ونمو المصالح والحركات، لفترة طويلة.

٢ البرتغاليون والانجليز والفرنسيون :

لقد تمكن البرتغاليون كما ذكرنا من الوصول إلى الهند، ومن إنشاء المراكز التجارية على سواحل القارة الإفريقية وعلى طول الطريق المؤدى إلى التوابل وقد تحول المحيط الهندي إلى شحر برتغالي واحتفظت لشبونة باحتكار التجارة فيه، ومنعت كل سفينة من الملاحة فيه إلا بعد تزويدها بتصريح رسمي من ملك البرتغال، ومع إنشاء الحصون على السواحل الإفريقية، ثم إعداد المخازن فيها وتركوا في كل منها بعض التجار مع بعض العمال وبعض الجنود، وهكذا أقام البرتغاليون في إفريقيا الشرقية، والأجواد في سوفاله وموزمبيق وفي جنوب مدغشقر، كما أقاموا في سومطره عند مدخل البحر الأحمر، وفي هرمز، عند مدخل الخليج الفارسي، وفي مسقط، وأصبحت لهم مواقعهم على سواحل الهند نفسها. ولقد امتدت مراكز البرتغاليين بعد ذلك في آسيا حتى وصلوا إلى العين وجزر الهند الشرقية.

ولقد أصبح البرتغاليون مسيطرين على تجارة التوابل واحتكروا العمليات التجارية فى المحيط الهندى واحتكرت الدولة البرتغالية تجارة الفلفل، وأصبح ملك البرتغال هو ملك الفلفل، وكان يدفع نفقات بلاطه وقصره ، وحتى مهر ابنته عيناً من الفلفل . وكانت كل التوابل الأخرى تستورد إلى لشبونة، فى صناديق مقللة ويقوم بيت التجارة ببيعها ويحصل منها على نسبة تتراوح بين ثلاثين وستين فى المائة من ثمنها كضريبة للخزانة. وكانت العملية إذن خاضعة لسلطة الحكومة أو السلطة الدولة، وفى شكل احتكار؛ وكانت معرضة بالتالى وفى أوقات الضعف لكى تخضع لعمليات التهريب.

وكان من نتيجة توسع البرتغاليين صوب الشرق ، ويشكل مستمر ، وفى نفس الوقت الذى أخذ الإسبانىون فيه فى التوسع صوب الغرب ، حتمية تقابل الطرفين ، وبشكل يختم ضرورة رسم . خط آخر على الناحية الأخرى من الكرة الأرضية ، لتقسيم مناطق النفوذ بين إسبانيا والبرتغال ، فى المحيط الهادى هذه المرة .

ورغم أن ماجلان كان برتغالياً، إلا أنه عمل فى خدمة شارل الخامس ؛ وتمكن من القيام برحلة إنف بها حول العالم : فخرج إلى المحيط الهادى حتى وصل جزر سان لازار ، وهى التى قتل فيها ماجلان فى معركة مع الأهالى ، وقام البرتغاليون بأسر بقية سفنه ولكن إحدى السفن تمكنت من الوصول إلى إسبانيا؛ بعد رحلة دامت ثلاث سنوات فيشت كروية الأرض، وظهر التنافس الإسبانى البرتغالى على منطقة المحيط الهادى. وكان البرتغاليون هم أول من وصل إلى ملقه وكانوا هناك أقوى من الإسبانين. وكان شارل الخامس فى حاجة شديدة إلى النقود، فاضطر إلى التنازل عن مطالبه نظير ٣٥٠,٠٠٠ دوقية من الذهب ولكنه لم يتخل عن جزر سان لازار، والتي سميت الفلبين نسبة إلى ولى العهد، والذي سيصبح فيليب الثانى فيما بعد، وكان هذا أساساً لإقامة بعض الإسبانىون فى هذه الجزيرة، ونشأة مدينة مانىلا عاصمتها فيما بعد.

وهكذا أصبحت كلاً من إسبانيا والبرتغال تسيطر على إمبراطورية ضخمة فى العالم، وزاد وضوح هذه الهيبة الكبيرة مع انضمام حكومة البرتغال إلى الحكومة الأسبانية بعد مقتل ملك البرتغال فى معركة وادى المخازن فزادت ضخامة هذه القوة الاحتكارية للتجارة العالمية، وعبر المحيطات، لكى تركز هذه السلع فى شبه جزيرة إيبيريا، ثم تعيد توزيعها على القارة الأوربية مع مصبات الأنهار . مصب نهر الراين فى الأراضي المنخفضة، والأنهار الأخرى على بحر

الشمال، لكى تقبل منها هذه السلع إلى بقية مناطق التوزيع فى قلب القارة وفى مناطق الإمبراطورية المقدسة، وإذا كانت الدولة قد احتفظت بحق احتكار لتجارة في شبه جزيرة إيبيريا وتحت سلطتها المباشرة، فإن مناطق توزيع هذه التجارة في أوربا، وبخاصة في الأراضي المنخفضة، أخذت في العمل ضد مصلحة الدولة الأسبانية، وإذا كانت حكومة أسبانيا قد دعمت نفوذها في شبه جزيرة إيبيريا سلطة الكنيسة والكرادلة الكاثوليك فإن الأراضي المنخفضة كانت تضم الكثير من اليهود المطرودين من أسبانيا، والذين انتقلوا إلى هناك للتجارة، وكانت كذلك ميدان عمل خصب لمذاهب الإصلاح البروتستانتية. إن الروح الجديدة في مناطق التوزيع تعمل منذ السلطة والشعارات المرفوعة في أسبانيا. وحتى هذه السلطة في بلادها المسيطرة كانت تقاسي من عمليات تهريب السلع والتي كانت الدولة تحتكر نقلها والتجارة فيها. إنها بداية الظهور تجاه حرية التجارة في الأراضي المنخفضة، وبشكل يتعارض مع احتكار التجارة الذي فرضته الدولة الأسبانية.

هي سلطة ولم تكن الأراضي المنخفضة. المنافس الوحيد للدولة الأسبانية، بل كانت تمثل أحد أقاليمها الخاضعة لها وستحاول الحصول على استقلالها عن أسبانيا، ورغم تشدد الأسبانيون في حكم الأراضي المنخفضة وكان هناك كذلك الإنجليز والفرنسيين كمنافس لأسبانيا وللنظام الذى وضعته لاحتكار التجارة العالمية واحتكار نقل سلعها. وكانت كل منهما تحاول كذلك الوصول إلى الهند، لي الحصول على الأقل على نصيب من الأراضي الجديدة، ومنتجات هذه الأقاليم.

كان الإنجليز يعارضون احتكار الإسبانين والبرتغاليون التجارة العالم وشاركهم الفرنسيون في هذه المشاعر، حتى أن فرانسوا الأول أعلن أن الشمس تشرق للجميع، وطالب بعرض وصية آدم التي تحرمه من الحصول على نصيب في تقسيم العالم. وكان الطريقة العملية لإعادة التوازن تتلخص في انتزاع الثروات انتزاعاً من المستعمرين ومن مستعمراتهم، فهل هذه هى الفرسة ؟ لقد حاول بعض الفقهاء والمشرعين التمييز بين القرصنة والقناصة البحرية، وذكروا أن القرصنة هم مجرد قطاع للطرق البحرية، وأما القناصة فتعترف بهم دولهم رسمياً وتعطيهم الحق الرسمي في وقت الحرب، لأسر سفن الأمة المعادية، والاستيلاء عليها.

ولقد قام القناصة البحريين بسنتهم السريعة بعمليات السلب بالقرب من جزر الأنتيل، وتعاونوا مع المهريين الذين كانوا يحاولون الوصول إلى العالم الجديد وكثيراً ما قاموا بالنزول إلى الأماكن والمراكز التي تخزن فيها الضائع، والاحميها كما هاجموا ونهبوا السفن الإسبانية، التي كانت تخاطر من وقت إلى وقت بالسفر بمفردها على المحيط الأطلسي أو المحيط الهادي.

ولقد قام القناصة الفرنسيون مباحمه مغازه هافانا وحولوا الأماكن القريبة من حزر كناريا والخالدات إلى مناطق عمليات وصيد أخرى. وكانت أهم العامراتهم في عام ١٥٢٣ حين تمكنوا من أسر سفينتين من بين ثلاث سفن أسانية كانت تحمل إلى إسبانيا كنوز مونتروما، وعثروا فيها على أواني ذهبية وفنية وأحجار كريمة. وظهر قناصة آخرون أمام دير في المحيط الهندي. أما الإنجليز، فكانوا يراقبون السفن الإسبانية أمام خليج قادس وقام هرگز بالاستيلاء على حمولات كاملة من العبيد، وكان يبيعه بعد ذلك حسابه في أمريكا. وقام ابن عمه فرانسيس دريك بالنزول في أمريكا الوسطى، وبمهاجمة قوافل البغال التي كانت تحمل الذهب والفضة من بيرو، واستولى عليها، وعاد إلى بليموث بالسباتك وشجعت الملكة اليزابيث مشروع السفر حول العالم، حتى تتمكن من تطويق إسبانيا، وساهمت في مشروع الحملة. وقام دريك بعبور مضيق ماجلان، ودمر منشآت الأسبانيين من شيلي إلى كاليفورنيا، واستولى على سفينة أسبانية محملة بالذهب وفرض غرامة كبيرة على مانيل، وعاد إلى إنجلترا عن طريق رأس الرجاء الصالح، وفي هذه الرحلة حول العالم قام دريك بثمانين هجمة. وإذا كانت اليزابيث قد تبرأت منه، إلا أنها كافأته في نفس الوقت. وكان مقرباً منها. وقام بدوره في هزيمة الأرمادا أمام بليموث في عام ١٥٨٨ .

ولا شك أن عمليات القرصنة قد أدت من ناحية إلى منافسة الأسبانيين والبرتغاليين في عملية سيطرتهم على العالم، وفتحت الطريق أمام كل من إنجلترا وفرنسا في الحصول على مناطق جديدة تستعمرها على خريطة العالم، كما أنها فتحت الطريق أمام سفن هاتين الدولتين للعمل على تحطيم نظام احتكار التجارة لكل من إسبانيا والبرتغال، وسمحت لسفن هاتين الدولتين للعمل على تحطيم الدولتين، مع بقية السفن الأوروبية، للعمل على نقل العبيد من القارة الإفريقية إلى أمريكا والعالم الجديد.

أما رحلات جان وسباستيان كابوت للوصول إلى الهند عن طريق الشمال فإنها وصلت إلى نيو فاوندلاند وهي مناطق غنية بالأسماك، ووصلت بعثات أخرى إلى جرين لاند، وبدعوا

هناك في الاتصال بشعوب الإسكيمو أما محاولاتهم الوصول إلى الهند عن الطريق الشمالي الشرقي، فإنها انتهت إلى داخل الأراضي الروسية وفكروا من هناك في إمكانية الوصول إلى الهند ثم أخذ المغامرون الإنجليز يصلون إلى مستعمرة فرجينيا، والتي كانت أولى المستعمرات الثلاثة عشر، والتي ستكون بعد استقلالها الولايات المتحدة الأمريكية.

أما الفرنسيون، فإنهم كانوا يعيشون مرحلة صعبة في تاريخهم، نتيجة لانتشار الحروب الدينية، وحروبهم مع أسبانيا، ورغم أن أطماع الفرنسيين كانت مركزة في ذلك الوقت على إيطاليا، وأنهم كانوا يفضلون المعيشة في بلادهم الجميلة على الهجرة إلى الخارج، إلا أن بعض العناصر المغامرة من بينهم ذهبت إلى البعيد بعيداً عن سواحل فرنسا ووصلت إلى نيوفاوندلاند وقام حاك كاريتيه بالوصول إلى سب نهر سان لوران وأخذ الفرنسيون يتفاهمون مع الهنود الحمر، وكان ذلك أساساً لنشأة كل من كوبيك ومونتريال فيما بعد، إنها كندا.

ولا شك في أن اشتراك كل من الإنجليز والفرنسيين، وغيرهم في عملية منافسة احتكار الإسبانيين والبرتغاليين للتجارة العالمية سيؤدي إلى تحسين طريقة عمل أبناء هذه الدول في صراعهم ضد النظام الاحتكاري، وسيؤدي إلى نشأة شركات متعددة هولندية وإنجليزية وفرنسية تقوم بعملية الاستعمار، وعملية التجارة مع المناطق الواقعة فيما وراء البحار، بدلاً من الدولة، وإن كانت هذه الشركات تتمتع بسلطة الدولة نفسها في تعاملها مع الأهالي، وحماية الدولة لهذه الشركات في حالة اصطدامها مع شركات أخرى من دول أخرى، كما أنها تخفف من وقع الصدمة في حالة تصادم مصالح هذه الشركة مع المصالح الفعلية السلطة الدولة الاحتكارية في كل من أسبانيا أو البرتغال . وستكون لهذه الشركات علاقة مباشرة بالقارة الأفريقية كما أنها سوف تعمل على عمليات نقل العبيد من القارة الأفريقية إلى العالم الجديد.

٣ - الشركات الهولندية :

كانت هولندا تمثل إقليمياً غنياً، تمكن من الحصول على استقلاله، بعد أن اختار مذهب الإصلاح الديني، وفي ذلك الوقت كانت هولندا قد استضافت اليهود الذين كانوا قد طردوا من البرتغال كما استضافت البروتستانت الذين قامت فرنسا بطردهم وكانوا من أصحاب رؤوس الأموال، ووصلوا بأموالهم إلى هولندا. وكان الهولنديون كذلك بحارة، وعاش أهلها منذ فترة طويلة

على صيد الأسماك، حتى تحولت أمستردام إلى قاعدة بحرية للصيد والتجارة، وفي مطلع القرن السابع عشر، وصل عدد البحارة في هولندا إلى ما يقرب من ١٦٠,٠٠٠ بخار، وذلك في الوقت الذي بلغ فيه عدد السفن ما يقرب من عشر آلاف سفينة. ومع تطور النظام الرأسمالي، أصبحت هولندا تسيطر على عمليات التأمين المربحة، وتعمل على استغلال رؤوس أموالها فيما وراء البحار.

وفكر الهولنديون في أن يحصلوا على نصيب من ميراث البرتغاليين، في الميدان الاستعماري وإذا كانت هرمز قد عادت في هذا الوقت إلى فارس، والبنغال إلى السادة المغول، ومسقط إلى إمامها العربي فإن الأراضي المنخفضة حاولت الاحتفاظ بأهم أجزاء هذه الإمبراطورية مع مراكز الملابار في صورات وكوشين وسيلان وملقه وحزر التوابل الشهيرة، أي جاوه وسومطره. ولقد تطلب أمر استغلال هذه الإمبراطورية الشرقية إنشاء محطات على طول الطريق إلى الهند محطات بحرية، ومراكز لإنشاء السفن، ومخازن للتموين، ولقد تمكن الهولنديون من انتزاع رأس الرجاء الصالح من البرتغاليين، وأنشأوا فيها نقطة لتموين سفنهم.

ولقد حاول الهولنديون كذلك أن يعملوا في الاتجاه الغربي أي في سورينام في أمريكا الجنوبية، وكذلك حول نيو امستردام، التي أنشأوها على خليج مديسون، والتي سوف تصبح فيما بعد مدينة نيويورك وهذا العمل في الميدان الاستعماري لم يكن من مسئولية الدولة الهولندية، بل كان يمثل عمل مجموعة خاصة من الرجال تمكنت من الحصول على امتيازات عامة وقت وصول الأراضي المنخفضة إلى الاستقلال. وكان هذا هو عصر انتصار الشركات، والتي كانت دواعها ووسائلها مالية أكثر منها سياسية: فكانت الأقاليم المتحدة ترغب في المتاجرة، وكسب الثروة، وكانت وسائلها هي رؤوس الأموال والبنوك والشركات وكانت رؤوس الأموال متوفرة في هولندا، وتجمع البنوك في بنك واحد، هو بنك أمستردام منذ عام ١٦٠٩، فتمكن بذلك من أن يواجه كل العمليات الرأسمالية، بل أصبح أكبر مركز للعمليات المالية في أوروبا عدد من واجتمع تسعة من تجار أمستردام، منذ السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، وأنشأوا شركة فان قير أي الأراضي البعيدة ثم انتشرت غيرها من الشركات التي أخذت تجمع الأرباح، ثم تقسمها بعد ذلك بين حملة الأسهم. ومع اندماج هذه الشركات في بعضها، ثم إنشاء شركة الهند

الهولندية الشرقية عام ١٦٠٢، ثم نشأت بعدها شركة مماثلة في العالم الأمريكي، قبل مضي عشرين عام على ذلك .

ولقد كان من تقاليد هذا العصر ، والتي طبقت على معظم الشركات الاستعمارية ، وفي كل البلاد، أن تمنح الدولة لهذه الشركات إحتكار التجارة في معاملة خاصة في دفع الرسوم الجمركية ، وتعطيها كذلك حقوق سيادة على الأقاليم التي تحتلها . وكانت هذه الشركات تحتفظ جيوش ، وتشرف منطقة معينة مع على العدالة ، وتضرب قطع العملة، وكانت الشركات الهولندية للهند الشرقية ، بعد نجاحها تعتبر مثلاً لهذه الشركات . فقد كان رأس مالها الأصلي قد جمع من برجوازية التجار في الأقاليم المتحدة، وزاد على ستة ملايين فلوران ؛ أما ميدان عملها فقد غطى المحيط الهندي والمحيط الهادى، من رأس الرجاء الصالح ، حتى مضيق ماجلان . وكانت الشركة تجهز السفن ، وتعين ممثليها وتستخدم الجنود المرتزقة، وتقرر حجم ونوعية مشترواتها. وكانت تحدد أسعار البيع، وأنصبة الربح وكانت هذه الشركة تبيع السكر فى أوروبا بخمسة أضعاف ثمن شرائها له، والفلفل بستة أضعاف، و ووصلت أنصبة الأرباح بعد بضع سنوات إلى ما يتراوح بين ١٢٪، و ٧٥% ومتوسط ٢٠٪ فى السنة، أى أن هذه الأرباح كانت تمثل في مائة وثمانين عاماً مضاعفة رأس المال ستة وثلاثين مرة.

وكان لهذه الشركة إدارة خاصة في الهند، تحت رئاسة حاكم عام كان يغير مديراً تجارياً. وكانت تشرف على ما يتراوح بين ١٢,٠٠٠ و ٢٠,٠٠٠ جندى، علاوة على ١٥,٠٠٠ بخار وأشرفت على كل المراكز المنتشرة من رأس الرجاء الصالح حتى مياه اليابان. ومع الطابع العسكرى لهذه الشركة، كان هناك طابعها التجاري والزراعى حينما بدأ المعمرون فى فلاحه الأرض المحيطة بهذه المراكز وبهذه الطريقة تحولت القاعدة البحرية عند رأس الرجاء الصالح إلى مستعمرة للتوطن وأقام فيها الفلاحون الهولنديون، واسمهم البوير، ثم لحق بهم بعد ذلك الهجنون الفرنسيون واستمر كل منهم يعيش معيشة خاصة به، ويزرع الحبوب ثم أدخلوا الخيول في المنطقة، وأبعدوا عنها عناصر الوطنيين والهوتنتوت، وبكل شدة وقسوة ..

وفى جاوه، فرضت الشركة سيادتها على أمراء الجزيرة، وأنشأت عاصمتها بتافيا على خرائب مدينة جاكرنا الوطنية وامتدت نفوذها على كل الجزيرة وبدأ الهولنديون هناك يعملون في الزراعة، وخاصة الفلفل وقصب السكر، ثم القهوة كما قاموا بزراعة المسك والقرنفل في ملقه،

وأجبروا الأهالي على العمل في زراعة النباتات التي يحتاجونها، فتحول التاجر إلى مشرف على الإنتاج، واستخدم الجيوش المرتزقة لتنفيذ مخططاته.

وكانت الشركة تقوم بتخزين هذه المنتجات في مخازنها، ثم تنقلها السفن إلى أوروبا، حتى يتم توزيعها هناك. ولقد أدت قوة هذه الشركة حتى أصبحت لها إمبراطورية ضخمة، وفكرت الأراضي المنخفضة في إنشاء شركة مماثلة تعمل مع نصف الكرة الغربي، وشاركت بذلك مع غيرها عملية نهب أمريكا اللاتينية. أثناء ولقد سمحت أساطيل هولندا بوضع البلاد الصغيرة في اتصال مع جميع أالعالم. وكانت هذه التجربة دافعاً لكل من الإنجليز والفرنسيين لكي يقوموا بمثلها، وفي نفس الميدان. ويهمننا من هذه الحركة التجارية أنها قد شاركت برؤوس أموالها وسفنها، في تجارة الرقيق، ونقل الرقيق من القارة الأفريقية إلى العام الحديد.

الشركات الإنجليزية:

كانت أشهر هذه الشركات هي شركة الهند الشرقية الإجليزية، وسار الإنجليز في إنشائها على نفس خط السير الذي كان الهولنديون قد ساروا عليه. وكان الهولنديون قد سبقوا الإنجليز إلى الهند ثم ضاعفوا أثمان الفلفل فنشأت شركة تجار لندن المتعاملين مع الهند « في الأيام الأخيرة من القرن السادس عشر، وهي التي ستصبح فيما بعد شركة الهند الشرقية الشهيرة. ولقد وافقت الملكة اليزابيث على ذلك، ومنحت هذه الشركة احتكار التجارة بين إنجلترا وكل البلاد الواقعة إلى شرق رأس الرجاء الصالح، مع سلطات سيادة على المناطق التي تغزوها وإعفاءات جمركية على سلعها، والحق في تصدير ما قيمته ثلاثين ألف جنيهاً سنوياً من المعادن النفيسة. وكان رأس مالها ثمانية ألف جنيهاً، ولكنه زاد بسرعة إلى ٤١٨ ألف؛ كما زاد امتيازاتها في عام ١٦٠٣ وأصبح لها الحق في الاحتفاظ محاميات وإعلان الحرب وعقد الصلح، وتولى السلطة القضائية. وأقلع أول أساطيلها في ظل موجة من الحماس العام. وذهب جيمس لانكستر الذي قاد هذا الأسطول حتى جزر التوابل، وتفاوض من السلاطين المحليين، وأنشأ مراكز تجارية في جاوه وسومطره، ثم عاد منتصراً وأصبحت هذه الشركة منذ ذلك الوقت إحدى المنشآت الوطنية. ولقد عملت هذه الشركة في الهند نفسها، ثم تدخلت في المنازعات بين الرؤساء الوطنيين، وحصلت هناك على حقوق جديدة كانت هي أساس سلطة بريطانيا الإمبراطورية في الهند فيما بعد.

حقيقة أن هذه الشركة قد اصطدمت بالهولنديين من وقت لآخر، ووقعت معارك حربية بين الطرفين، ولم يتورع هؤلاء النجار على القتل والهدم وإحراق القرى لزيادة مكاسبهم. وكان هدفهم هو الريح قبل كل شيء وتحت علم الشركة والتي كانت المجليزية، ولقد وصل الحال بهذه الشركة إلى أن تصبح قوة مالية لها اعتبارها، حتى أنها أقرضت حكومة لندن نفسها في بعض الأزمات. وفي الهند أصبحت هذه الشركة مالكة وذات سيادة، وبخاصة بعد أن اشترت من بعض الأمراء إماراتهم بما عليها من أهالي، ورعايا وفي نظير دفعها معاش سنوي للأمراء ولقد رضيت المجلترا بهذا النظام الذي كان يوحد بين جهود المواطنين وجهود الدولة، وفي إطار مشروع تجاري الحديث وكانت شركة الهند تحقق آمال الإنجليز فيها، وبشكل سمح لها بأن تعيش لمدة أطول من قرنين ونصف قرن وسمح لها بأن توصل إحدى نظم عصر الملكة اليزابيث حتى عصر الملكة فكتوريا.

ولقد عملت انجلترا على إنشاء شركة أخرى للعمل في « الهند الغربية » وكان عليها في هذا النطاق أن تتعامل مع الأسبانيين، وكان أول ميدان للعمليات البريطانية في هذا السبيل هو إفريقية، خاصة وأن المراكز التي كانت تنشأ على سواحل هذه القارة كانت تورد العبيد، الذين يمكن بواسطتهم تحطيم عملية الحصار الأسباني على أمريكا، خاصة وأن أسبانيا لم تكن لها الأدوات والسلع التي كانت لازمة لشراء العبيد ولم تكن لها السفن اللازمة لتقلهم، فاضطرت إلى ترك عملية التجارة في الرقيق إلى الدول الأخرى التي يمكنها أن تقوم بها. وكان من اللازم على إنجلترا أن تثبت أقدامها في أفريقية، حتى تتمكن من أن تدخل في أمريكا، فأقامت شركة غرب أفريقية « للعمل على طول الساحل الغربي لهذه القارة، وأعطتها حامبيا وسيراليون وساحل الذهب وساحل العبيد نقطاً للجمع وشحن الزنوج إلى العالم الجديد. وكثيراً ما كان الإنجليز يقومون بنقل ما يقرب من خمسة آلاف رجل في السنة، وتمكنوا بذلك من السيطرة على نصف هذه التجارة، وسبقوا الفرنسيين والبرتغاليين والهولنديين فيها بكثير.

وفي نطاق التنافس مع أسبانيا، تمكنت إنجلترا من الاستيلاء على جزيرة . سانت هيلانه في وسط المحيط الأطلنطي، واستخدامها محطة خرية، وقامت عليها المستشفيات ومخازن التموين وتمكنت من الحصول على طنجه، وحين خسرتها، تمكنت من الاستيلاء على جبل طارق، ثم على جزيرة منيورقه، واستخدمتها قواعد المحاصرة إسبانيا، وحارب الإنجليز الأسبانيين

في جزر الأنتيل، وثبتوا مواقع أقدامهم هناك كما أنهم عملوا في القرصنة، وشاركوا في نهب نيكاراجوا وهندوراس وبنما وفيراكروز كما قاموا بالاستيلاء على ترينيداد وبرمودا والكثير من الجزر الصغيرة في بحر الأنتيل، أو حزر البحر الكاريبي. وتوجوا هذه العملية باستيلائهم على جزيرة جامايكا في عام ١٦٥٥ ، وقضوا على الأسبانيون، بعد أن كان هؤلاء قد قضوا على الوطنيين وعمر الإنجليز جزيرة جامايكا بالاسكتلنديين والاييرلنديين والزنج، وصلوا منها مركزا لتجارة العبيد وللتهرب.

ولقد أصبحت جزر الأنتيل الإنجليزية إحدى النقط الهامة في تلك الرحلة المثلة، والتي كانت السفن الإنجليزية تترك فيها لندن وبريستول مشحونة بالمنسوجات والأدوات الحديدية، وتصل إلى الساحل الأفريقي، حيث تبدل سلعها ويعيد شحنها بالعبيد، ثم تصل إلى إحدى نقط أمريكا وتبيع العبيد وتشتري السكر والروم والطباق، ثم القطن فيما بعد. وكانت الأراضي في هذه الجزر ملكاً المزارعين يقيم أغلبهم في إنجلترا نفسها هذا خلاف مراكز القرصنة داخل اللجان الصغيرة.

ولا شك أن عملية التوسع الاستعماري البريطاني في البحر الكاريبي وفي أمريكا الشمالية استمرت منذ ذلك الوقت، وبخطوات واسعة، ولكن ما يهمننا هو علاقة الوجود الإنجليزي في البحر الكاريبي، وعملهم في نقل الرقيق من القارة الأفريقية إلى المناطق الأمريكية. ولقد أصبح الزنج يمثلون، وإلى حد بعيد، القررة العاملة في الزراعة، خاصة في المستعمرات الإنجليزية في العالم الجديد، وحتى في المستعمرات الإنجليزية الثلاثة عشر ، والتي سوف تصبح الولايات المتحدة الأمريكية، بعد استقلالها عن إنجلترا، الوطن الأم.

الشركات الفرنسية:

نزلت فرنسا إلى ميدان إنشاء الشركات الاستعمارية مثلها في ذلك مثل هولندا وإنجلترا. وكان من سوء حظ فرنسا إنها لم تكن دولة فقيرة، فقل عدد الراغبين في الهجرة وفي المقامرة في الخارج من بين أبنائها. ورغم ذلك فقد عملت منذ عهد هنرى الرابع إلى تشجيع حركة ركة الاستعمار، وأوصت بإنشاء المناطق الزراعية والأقاليم الفرنسية في الأراضي الجديدة فيما وراء البحار. وعملت فرنسا على إنشاء شركة مرسيليا للتجارة مع المعرض الشرقي للبحر المتوسط،

ونضحت هذه الفكرة مع مرور الزمن، ونشأت شركات أخرى إلى جوار هذه الشركة، وكان لكل منها حقوق إقليمية، مثل شركة موريبهان، والمائة شريك وسان كريستوف، والجزر، ورأس الشمال والشرق. وكان هذا الطموح كبيراً، رغم أن رؤوس الأموال كانت بسيطة، والرغبة في الإقدام على هذه المشروعات كانت قليلة.

وفي عصر كولبير، ظهر أنه يمكن للشركات الخاصة وحدها أن تتاجر وتستعمر وتربح وبدرجة أكبر من الأفراد فاحتفظ لهذه المؤسسات بالمزايا والضمانات اللازمة لازدهارها. فقل عدد الشركات عما كان عليه من قبل، ولكنها أصبحت أكثر تجهيزاً، وأكثر خضوعاً للإشراف عما كانت عليه من قبل. وجاء لويس الرابع عشر بعد ذلك، وعمل على تنمية البحرية والتجارة وأفادت من ذلك كل من شركات الهند الشرقية والهند الغربية، وشركة الشمال وشركة الشرق وشركة السنغال، وهي الشركات التي كان كولبير قد أنشأها. وأفادت من المزايا القانونية والمالية. فلقد منحها هذا الملك إعفاءات من ضرائب شحن، ووضع لها نظاماً بحرية مريحة وسياسة جمركية في صالحها؛ فساعدتها ذلك تثيراً، وساعد كل الشركات على الازدهار والتكاثر. ووصل عدد هذه الشركات

في الفترة الواقعة بين وفاة هنري الرابع وبين نشوب الثورة الفرنسية خمساً وسبعين شركة فرنسية. وكانت لوائحها متشابهة؛ إذ كان لها حق الملاحة والتجارة والاستيراد والتصدير في منطقة معينة محددة. وكان من الممكن تشجيع هذه الشركات بإعطائها هذه المناطق التي تعمل فيها، وإخضاعها لسيادتها وحقوقها الإدارية والقضائية؛ فأصبحت المستعمرات بهذا الشكل ممتلكات للشركات تقوم بنقل المعمرين إليها، وتحتفظ فيها ببعثات دينية، وتعمل فيها على نشر التقاليد الفرنسية.

وكانت فرنسا تعد من يساعدون برؤوس أموالهم على ازدهار المستعمرات منحهم الامتيازات وألقاب النبل، وتسمح بدخول الأجانب من بينهم في الحاشية الفرنسية. وكان الملك يأخذ أول نصيب في الشركة، وكان بهذا يجبر البلاط على التشبه به، وشراء الأنصبة في هذه الشركة. وكانت الدولة تقوم جزءاً من رأس المال بدون ربح ورغم كل ذلك فقد كان الصعب تغيير هذه المجموعات الكبيرة من البرجوازيين والفلاحين والذين بقوا، عازفين وإلى حد بعيد، عن المساهمة في هذه المشروعات. وإذا كان تعدد الشركات هو السبب الأساسي في حيرة الأهالي

أمام الاختيار للمساهمة في شركة معينة، فإن شركة واحدة قد حظيت بانتباه أكبر، وهي شركة الهند التي كانت هناك أسباب اجتماعية وسياسية وفكرية تدفع الفرنسيين إلى المساهمة فيها للحصول على توابل ولآلئ الشرق، وتحدى الشركات الهولندية والإنجليزية المماثلة وللوصول إلى النجاح عن طريقها.

ولقد أنشأت فرنسا عدداً الشركات للهند الشرقية الواحدة بعد الأخرى: . أنشأت الأولى في عهد هنري الرابع، ولم تتمكن هذه الشركة من القيام بأى شئ. وأنشأت الثانية في عام ١٦١٥ ، وأعطتها احتكار تجارة الشرق في المناطق الواقعة فيما وراء مدغشقر. وأما الشركة الثالثة للهند الشرقية فقد أنشأها كولبير عام ١٦٦٤م برأس مال قدره ١٥ مليون جنيه، وأعطاهم حق التجارة بين رأس الرجاء الصالح ومضيق محلان لمدة خمسين سنة، علاوة على ملكية جزيرة دوقين، التي أصبحت تعرف باسم مدغشقر فيما بعد، ونسبة معينة من . حملة التجارة المستوردة والمصدرة، وإعفاء من نصف رسوم دخول الموانئ ورسوم . م الجمارك في جميع أنحاء المملكة. ولقد أنزلت هذه الشركة الجنود والمعمرين في جزيرة دوقين، وحاولت العمل في الهند، ولكن نجاحها كان نسبياً هناك. وجاءت النتائج المالية مخيبة للآمال، فاضطر الملك إلى أن يسحب من هذه الشركة حقوقها التجارية، ولم يترك لها إلا امتياز النقل، ولكن الفرنسيين حصلوا مع مرور الوقت على مواقع أقدم لهم في شبه القارة الهندية.

ولقد نجحت فرنسا كذلك في إفريقية، وفي أفريقية السوداء، وفي مدغشقر وفي المحيط الهندي، ونجحت شركة الهند مع غيرها من الشركات الأخرى المماثلة في القيام بعمليات استثمار على درجة معينة من النجاح.

أما في شمال أفريقية المواجه لفرنسا، فإن فرنسا قد نجحت في إنشاء قواعد سهلت عليها عمليات الأمن في البحر المتوسط، وسمحت لها بالمتاجرة مع أفريقية في الصوف والجلود، ونشأة شركات متعددة في هذا القطاع، وأنشأت لنفسها رؤوس حور على القارة الأفريقية سواء بالقرب من القال، أو الرأس الأسود في تونس، أو في عناية، حيث كانت تستورد القمح والحبوب والشمع والجلود.

أما في أفريقيا السوداء، فإننا نجد شركات متعددة تعمل في هذا الميدان، ومن بين أهمها شركة سينجامبيا، وشركة السنغال، وشركة غينيا، وشركة الغرب. و قامت هذه الشركات بإنشاء مراكز لرسو السفن على طول الطريق المؤدى إلى رأس الرجاء الصالح إلى الهند وأصبحت هذه المراكز البحرية مراكز تجارية لشراء الزيت وسن الفيل والصبغ والعبيد بنوع خاص؛ فأصبحت سان لوى والبريدا في جامبيا وجزيرة جوريه قرب الرأس الأخضر، وبعض المراكز الواقعة على ساحل الذهب وغينيا محطات هامة للتجارة فى العبيد. أما جزيرة دوقين، فقد قامت محاولات متعددة لاستعمارها، خاصة وأنها كانت محطة طبيعية في طريق الهند. ولكن هذه المحاولات فشلت فلم يبقى في بوردوقين، التي أنشئت في جنوب الجزيرة، إلا ثلاثين أوربيا واستولت عليها شركة الهند لكي تجعلها مركزاً لعملياتها في المحيط الهندي فى عام ١٦٦٥ . ولقد أنزلت إليها بعض الجنود والفلاحين والنجار، ولكن الأهالى هجموا عليها وأعملوا القتل في هؤلاء المعمرين، ورغم أن شركة الهند قد أخلت مدغشقر، إلا أن حكومة باريس قامت بضمها في عام ١٦٨٦، حتى حقوقها عليها. ولقد ظلت هذه الجزيرة خالية من الفرنسيين عاماً، حتى قام بعض القراصنة الفرنسيين بالمجيء في عام ١٧٥٠، والمخذوها ملجأً لنشاطهم في المحيط الهندي، ثم تمكن بعضهم من الزواج بأميرات من الجزيرة، وأنشوا لأنفسهم ممتلكات إقطاعية، وإن كانت إحدى الثورات الجديدة تحتفظ لمدة ستين قد قضت عليهم.

ولقد وجد الفرنسيون جزيرتين صغيرتين في مواجهة مدغشقر، حاليتين من السكان وتزدهر فيها النباتات والحيوانات وكانت الأولى هي جزيرة بوربون والثانية هي جزيرة فرنسا. أما الأولى فقد أرسلت إليها شركة الهند أربعة وعشرين من الصناع الشبان الأقوياء النبهاء مع أربعة وعشرين من الفتيات اليتيمات. ثم جاء إليها بعض اللاجئين من مدغشقر، وبعض الهولنديين والبرتغاليين، وبعض رجال بعثات التنصير، وعاش الجميع فيها على الصيد والزراعة وجمع الفواكه وصيد السلحفاة والخنازير البرية ووصل عددهم إلى خمسمائة عند نهاية القرن السابع عشر ولكن هذه الجزيرة ازدهرت بعد أن أدخلت الشركة فيها زراعة البن وأحضرت إليها العبيد من مدغشقر وموزمبيق للعمل فيها.

وأما جزيرة فرنسا فكانت لا تبعد عنها إلا بأربعين فرسحاً، وأصحت هاتين الجزيرتين مستعمرتان ناجحتان، تنتجان الأرز والذرة والقطن والقصب والنييلة. وجاء إليها المعمرين من

مدغشقر وأنشوا فيها صناعات صغيرة، وبخاصة صناعة السكر والمنسوجات، وأخذت بور لوى تزداد في أهميتها الصغيرة وقد حيت آمال المساهمين ، وهكذا نرى أنه رغم أن هذه الشركات فيها، ورغم أن شركة الهند لم تتمكن من دفع أرباح حقيقية لحملة أسهمها، إلا النتائج كانت إيجابية فبدأت فرنسا في الاختيار بين مراكز متعددة في إفريقية و مدغشقر وجزر المحيط الهندي، التي حصلت فيها على مراكز وحوالتها إلى مستعمرات زراعية وكما نجحت فرنسا في هذه المناطق تحت كذلك في العالم الجديد.

وفي البحر الكاريبي نزل الفرنسيون إلى هايتي التي أصبحت تسمى سال دومنكو. ولقد وصل عددهم هناك إلى أربعة أو خمسة آلاف، وعملوا في زراعة القطن وقصب السكر الأمر الذى استدعى تكليف شركة السعال بتوريد الأيدي العاملة من الزنوج اللازمين لاستغلال الجزيرة، وقامت فرنسا في عام ١٦٦٤ بإنشاء شركة الهند الغربية، والتي كان لها خمسين سفينة، مع حق احتكار لمدة أربعين عاماً. ولقد أفادت هذه الشركة من معونة حكومية بلغت ثلاثين جنيهاً عن كل طر من السلع التي تصدر من فرنسا. حقيقة أن الأهالي قد تم القضاء عليهم، ولكن تعمير الجزيرة بالبيض وبالزنوج المستوردين من أفريقية قد سار . عة، وبنفس سرعة التجارة، وأصبحت سان دومنكو لؤلؤة الأنتيل، ومستعمرة نموذجية يعلم بها ويمثلها كل الأوربيين. ولقد ظلت جزر البحر الكاريبي موطناً لاعتزاز فرنسا منذ بداية عملياتها الاستعمارية، وأصبحت تمثل ما يقرب من نصف تجارة كل الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار وامتلات بعدد كبير من المزارعين، وتحار السكر، وتجار العبيد؛ وكانت شركة الهند الغربية هي التي تدير شئونها.

وهكذا نجد أن عملية استغلال العالم الجديد، واستغلال مزارع قصب السكر في جزر الأنتيل وجزر البحر الكاريبي، ومزارع القطن في المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية، ومزارع البن في البرازيل وبقية أقاليم أمريكا الجنوبية كانت في حاجة إلى أيدي عاملة يمكنها أن تعمل في المناخ الاستوائي والمدارى، وكانت هذه الأيدي العاملة تأتي من القارة الأفريقية بعد اصطيادها وترحيلها، وفي شكل عبيد. ونظراً لأهمية دور الأفارقة الموجودين في المهجر، أي في العالم الجديد، في تنمية المناطق المختلفة من القارة الأمريكية، ولقداحة الثمن الذى دفعته القارة من أبنائها ودمائهم وحياتهم لتعمير العالم الجديد، تفرد لهذا الموضوع فصلاً خاصاً.

الفصل الخامس

مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ م

- الأوضاع الدولية فى الفترة السابقة لانعقاد المؤتمر
- نشاط الدول الأوروبية فى أفريقيا قبل انعقاد المؤتمر
- تطور مشكلة الكونغو قبل عقد مؤتمر برلين
- مؤتمر برلين وما دار فى جلساته
- الاتفاقات الجانبية على هامش المؤتمر
- أثر مؤتمر برلين على الخريطة السياسية لأفريقيا.
- التطورات التي مربها حوض الكونغو بعد مؤتمر برلين
- نظام الحكم البلجيكى فى الكونغو.

الأوضاع الدولية فى الفترة السابقة لانعقاد المؤتمر

تتطلب دراسة مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ - ١٨٨٥ عرضاً سريعاً للوضع الأوروبى الدولى فى الفترة السابقة لإنعقاد هذا المؤتمر ويقودنا هذا إلى الرجوع قليلا إلى عام ١٨٧٠ ، ذلك العام الذى شهد دخول الألمان فرنسا وكان ذلك نذيراً بإنهاء عهد وبداية عصر جديد بعد هزيمة فرنسا وتخليها عن زعامتها لأوروبا، فقام بسمارك بدور قيادى فى القارة الأوربية بعد أن جعل من ألمانيا دولة كبرى حيث اتحدت معظم الولايات الناطقة باللغة الألمانية حول (بروسيا) من أجل إنشاء اتحاد يمكن ألمانيا من الدخول فى عالم الصناعة، وأدى هذا بالفعل إلى ظهور دولة أوربية جديدة، استطاعت أن تتنافس فرنسا عسكرياً، وإنجلترا صناعياً.

وبينما كانت الصناعة تتطور فى إنتاجها - وجهت الحكومة الألمانية عناية كبيرة لتنمية البحرية الألمانية حيث تضاعفت سفن الامبراطورية الألمانية فى الفترة ١٨٧٠ - ١٨٩٠ سبعة أمثالها وارتفعت فى ألمانيا الأصوات عالية مطالبة بمستعمرات شبيهه بتلك التى كونتها إنجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية فى القارة الأفريقية .

ولم يكن أمام ألمانيا من وسيلة لدعم صناعاتها وجعلها تنافس المصنوعات الأوربية الأخرى إلا بالحصول على مستعمرات غنية تجد فيها المواد الخام اللازمة لصناعاتها، ووجدت ألمانيا ضالتها المنشودة فى القارة الأفريقية. وكانت ألمانيا قد تأخرت فى مجال الاستعمار وكان عليها أن تتحرك بسرعة لتأخذ نصيبها من القارة الأفريقية واندفع الرأسماليون الألمان والشركات التجارية الألمانية إلى سواحل أفريقيا يطلبون من حكوماتهم المراسيم التى تبيح لهم حق الاتجار فى المناطق التى يجدونها ملائمة كمجال لنشاطهم، ولم تتردد الحكومة الألمانية فى ذلك الوقت عن إجابة رغبتهم بعد أن أخذ الكتاب الألمان يشيرون إلى ضرورة إيجاد مستعمرات لألمانيا لترويج تجارتها.

وفى عام ١٨٧٨ أنشئت الجمعية الألمانية للدراسات برلين وأخذ المستكشفون الألمان يعملون فى المنطقة بين زنجبار وتنجانيقا . وفى عام ١٨٨٢ أنشئت الجمعية الألمانية للاستعمار (German Colonial Society) فى مدينة فرانكفورت وأدى ذلك إلى مضاعفة نشاط الألمان

الإستعماري وكان هدف هذه الجمعية الدعوة إلى إقامة مستعمرات وتجميع الجهود لهذا الغرض، وتمكنت الجمعية في عام ١٨٨٤ من إصدار صحيفة باسمها سميت الأفريقية في مدينة بالصحيفة الاستعمارية، وضمت هذه الجمعية أكثر من عشرة آلاف عضو وكان بسمارك الذي دعا إلى مؤتمر برلين حتى عام ١٨٨٤ يعارض إنشاء مستعمرات ألمانية فيما وراء البحار حتى يظل محتفظاً بمكان الصدارة داخل القارة الأوروبية، وقد علل ذلك بعدة اعتبارات منها الرغبة في تحقيق الأمن للرايخ الألماني وذلك بالابتعاد عن مشكلات الاستعمار التي تؤدي إلى الإحتكاك مع بقية الدول، ومنها عدم اقتناعه بالحصول على مستعمرات لدولة ناشئة مثل ألمانيا، ومنها اعتقاده بأن الألمان ليسوا في وضع يجعلهم يدخنون مجال المنافسة مع البريطانيين. وعلى هذا ظل بسمارك رديحاً طويلاً من الزمن يعارض السياسة الاستعمارية ولكن لم يلبث أن تغير الوضع بسرعة حتى أنه في غضون عام واحد كانت ألمانيا قد كونت امبراطوريتها الأفريقية .

أما إنجلترا فقد أفاقت من سياسة الحياد الطويل والعزلة التي اتبعتها لتجد فرنسا حليفها في حرب القرم وقد تحطمت قوتها ووجدت أمامها دولة أخرى ناشئة أكثر منها قوة، وبالطبع خشيت إنجلترا من هذه القوة الجديدة وكان بسمارك يعرف شعور إنجلترا ويعرف جلاستون وزملاءه من الأحرار، ولكن تغير الموقف حين تولى زعيم المحافظين الوزارة فلقد كان ذررائلي يسعى لاتباع سياسة خارجية نشطة، تخرج بريطانيا من عزلتها، وتعيد إليها مركزها في أوروبا ولهذا كان بسمارك حريصاً على إرضاء المجلتر في عهدا الجديد، وكان الإقتصاد الأوربي قد مر بأزمة عنيفة في الفترة بين عام ١٨٧٠ وعام ١٨٨٠م وبالتالي فقدت إنجلترا احتكارها الصناعي العالمي، ووجدت من ينافسها من دول القارة وقد تطلب حل المشكلة البحث عن أسواق فيما وراء البحار وأخذ أصحاب المصالح والتجار بحثاً عن المعاهدات التي تضع مناطق من تلك الجهات تحت سيطرة الدول الأوروبية .

وقد تحركت إنجلترا بجنوب غرب أفريقيا تحت ضغط فرنسا وبلجيكا ودخلت في صراع مع ألمانيا في شرق أفريقيا ومن ثم بدأ التكالب على القارة بالأفريقية من أجل الحصول على المناطق الغنية بالمواد الخام.

أما بالنسبة لفرنسا فإن ثلاثة عوامل ساهمت بشكل فعال في إثارة الرأي العام الفرنسي نحو الاستعمار وأعنى هذه الإنجازات التكنولوجية المشهورة في العالم ككل ثم اكتشاف الماس في عام ١٨٦٧ في جنوب أفريقيا وأخيراً تلك الروح القومية التي تولدت لدى الشعب الفرنسي بعد هزيمة فرنسا في عام ١٨٧١، وقد كان فقدان الإلزاس واللورين عاملاً في إثارة مختلف الطبقات نحو إظهار أن فرنسا لا زالت دولة قوية قادرة على التوسع وإكمال مهمتها الحضارية.

وكانت بريطانيا حريصة على مصالحها في مناطق غرب أفريقيا، وكانت قد بدأت هذا الدور كتاجر للرقيق ثم كرجل بوليس يعمل على الحد من هذه التجارة، وأخيراً كتاجر، شرعى وقد نجت خلال القرن الثامن عشر في المحافظة على إحتكارها الكامل لتجارة الرقيق، وبعد إلغاء هذه التجارة في أوائل القرن التاسع عشر أخذت على عاتقها مهمة القضاء على الذين يمارسون التجارة بها في ذلك الجزء من العالم ، ولم يكن هناك تدخل من جانب القوى الأخرى فظلت المنطقة طيلة ثلاثة أرباع قرون تمارس فيها بريطانيا - إلى جانب القضاء على تجارة الرقيق - بعض الأعمال التجارية المشروعة، وأخذ التجار يتبادلون منتجات زيت النخيل والعاج مقابل بعض السلع الصناعية الرخيصة.

وخلال العقد السابع من القرن التاسع عشر بدأت بريطانيا في تقوية نفوذها القنصلي في غرب أفريقيا ولكن ذلك لم يتم فعلاً حتى عام ١٨٨٠ عندما بدأت تتخذ خطوات إيجابية لتأكيد مكانتها بسبب ظهور الفرنسيين كقوة على الأحداث حيث كانت فرنسا تسعى لشق الطريق باستمرار منذ عام ١٨٦٠ نحو الداخل شرقاً من قاعدتها في السنغال وكانت فرنسا قد بدأت تندفع نحو أعالي النيجر بعد سلسلة من العمليات العسكرية في سانجامبيا بهدف الوصول إلى النيجر والاتجار فيه عن طريق ربطه بخط حديدي يصل إلى مسرح المجرى الملاحي لنهر السنغال، كان هذا الصراع بين تلك الدول الاستعمارية الأوربية من العوامل القوية التي غيرت مجرى الأمور السياسية وزادت من تقاوم الموقف الأوربي بعد عام ١٨٨٠ م.

نشاط الدول الأوروبية في أفريقيا قبل انعقاد المؤتمر:

إن دراسة نشاط القوى الأوروبية قبل انعقاد المؤتمر تقودنا إلى أن نتساءل:

كيف تغير الرأي العام الأوروبي ما بين أعوام ١٨٨٠ ، ١٨٨٥ لدرجة أنه في خلال عشرين عاماً صارت القارة الأفريقية باستثناء إثيوبيا وليبيريا خاضعة للاستعمار الأوروبي؟.

خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر بدأت بريطانيا في تقوية نفوذها القنصلي في غرب أفريقيا ولكن ذلك لم يتم فعلاً حتى عام ١٨٨٠ عندما بدأت تتخذ خطوات إيجابية لتأكيد مكانتها بسبب ظهور الفرنسيين كقوة على الأحداث حيث كانت فرنسا تسعى لشق الطريق باستمرار منذ عام ١٨٦٠ نحو الداخل شرقاً من قاعدتها في السنغال وكانت فرنسا قد بدأت تندفع نحو أعالي النيجر بعد سلسلة من العمليات العسكرية في سانجامبيا بهدف الوصول إلى النيجر والاتجار فيه عن طريق ربطه بخط حديدي يصل إلى مسرح المجرى الملاحي لنهر السنغال.

كان هذا الصراع بين تلك الدول الاستعمارية الأوروبية من العوامل القوية التي غيرت مجرى الأمور السياسية وزادت من تفاقم الموقف الأوروبي بعد عام ١٨٨٠ م.

إن خريطة أفريقية في عام ١٨٨٤ توضح هذه الحقيقة، فلقد كانت أهم القوى في تلك الفترة هي إنجلترا وفرنسا والبرتغال وكانت البرتغال تدعى سيطرتها على مناطق شاسعة من أفريقيا ولكن احتلالها الفعلي لهذه المناطق لم يكن جاداً، وكانت بريطانيا تحبذ فكرة استحواد البرتغال على شريط يمتد من خط ١٢، ٠٥ إلى خط ٥٨ جنوباً بما في ذلك مصب نهر الكونغو، حيث لم تكن الكونغو الحرة قد برزت بعد إلى حيز الوجود.

أما بالنسبة لفرنسا فكانت قد استقرت منذ بداية القرن التاسع عشر في الجزائر ثم وجدت لها موضع قدم على الساحل الغربي لأفريقيا وأخذت تتطلع نحو النيجر كما وسعت مجال نفوذها في الجابون واستولت على منطقة واسعة من الكونغو على ضفة النهر اليمنى، وكانت تسعى لوضع مدغشقر تحت نفوذها ... أما بريطانيا فكانت تسيطر عملياً على بعض المناطق في جنوب أفريقيا حتى نهر أورنج وخليج دالجوا، وكانت تستعد للسيطرة على بتسونالاند، وعلى الساحل الغربي كانت تتمسك بمستعمراتها الأربع هناك، وكانت لها بعض مناطق النفوذ في

مملكة المتابيلي في وسط القارة، بالإضافة إلى نفوذها في زنجبار وكانت مصر في تلك الفترة قد فقدت السودان بسبب الثورة المهدية وكانت إيطاليا تتطلع إلى السيطرة على ليبيا، بينما كان تجارها يرتادون مناطق من الحبشة وأما إسبانيا فلم يكن لها موضع قدم على ساحل السودان الغربي بالرغم من إدعائها في بعض المناطق هناك.

ويعتبر عام ١٨٨٠ عاماً حاسماً في تاريخ إيطاليا الاستعماري حيث ثبت الإيطاليون أقدامهم لأول مرة في القارة الأفريقية في منطقة خليج عصب (Assad bay) التي استولت عليها فرنسا على ساحل البحر الأحمر، وكانت أنظارهم تتطلع إلى تونس لكن فرنسا أفسدت عليهم خططهم باحتلالها فاتجهت أنظارهم بعد ذلك إلى الحبشة وشرق أفريقيا.

هناك وكان نشاط ستانلي في حوض الكونغو، وبخاصة في تأسيس أول محطة باسم ! المنظمة الدولية التي نادى بها الملك ليوبولد ملك بلجيكا في عام ١٨٨٠ وكذلك المعاهدات التي وقعها مع الزعماء الوطنيين - دافعاً لأن يكشف الملك ليوبولد القناع عن إغراض الهيئة (هيئة الكونغو الأعلى وكانت عملية تجريده الهيئة الدولية من صفتها العالمية وجعلها مشروعاً بلجيكيًا بحتاً هي الشرارة الأخيرة التي ألهبت التوسع الاستعماري الأوربي في القارة الأفريقية وجعلت الدول الأوربية تتسابق في الحصول على أراض أفريقية حيث احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١، واحتلت إنجلترا مصر في عام ١٨٨٢ و تتابعت عمليات التوسع والاستعمار.

كان هذا هو الوضع في القارة الأفريقية عندما فجرت ألمانيا عملية التكالب الاستعماري على أفريقيا (Scramble for Africa). ويمكن القول أن هذا الصراع بين القوى الأوربية وفي جو الشكوك التي ساورت كل منها في نوايا الدول الأخرى - بدأت الخيوط التي تجمعت في النهاية وأدت لعقد مؤتمر دولي تناقش فيه تلك القضايا الأفريقية. ورغم أن هذا المؤتمر كان في بدايته مهتماً أساساً بمسألة الكونغو كما ادعت الدول الداعية إليه فإنه امتد ليشمل قضايا أخرى ونبعت فكرة المؤتمر أصلاً للقضاء على معاهدة لم تعتمد بعد بين بريطانيا والبرتغال في ٢٦ فبراير ١٨٨٤ ورغم أن هذه المعاهدة تتعلق أساساً بإنجلترا والبرتغال - إلا أنها امتدت لتشمل قوى أخرى مثل فرنسا والمنظمة الدولية للكونغو وامتد نطاقها فيما بعد فشملت عدة دول أخرى.

وكانت إنجلترا قد تفاوضت مع البرتغال من أجل القيام بعمل مشترك ضد مشروع ليوبولد بتجريد الهيئة من الصبغة الدولية وتحويلها إلى مشروع بلجيكي بحت، ووصلت الدولتان (إنجلترا، والبرتغال في ٢٦ فبراير ١٨٨٤ إلى اتفاق تعترف فيه بريطانيا بأحقية البرتغال في الإستيلاء على إقليم الكونغو بين خطى عرض ١٢ ، ٨٠٥ جنوباً على أن تكفل حرية الملاحة في كل من الكونغو والنيجر وأن تعمل الدولتان سوياً للقضاء على تجارة الرقيق، وكانت بريطانيا ترى في الاعتراف بحقوق البرتغال في الكونغو خطوة تمهيدية لفرض السيادة البريطانية عليه فالبرتغال دولة صغيرة وضعيفة وليست منافسة لإنجلترا.

تطور مشكلة الكونغو قبل عقد مؤتمر برلين

المعروف أن البرتغال هي أقدم الدول الاستعمارية نشاطاً في منطقة الكونغو ولكن ادعاءاتها في هذه المناطق لم تكن واضحة ولم تؤيد ذلك باحتلال فعلى بل ارتبطت مصالحها في هذه المنطقة طوال أربعة قرون بتجارة الرقيق التي ألغيت رسمياً في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، ورغم هذا فقد استمرت البرتغال تمارس هذه التجارة وكانت كل من بريطانيا وفرنسا تعملان على منع أية قوة تمارس العمل في تجارة الرقيق من السيطرة على مصب نهر الكونغو أو الشواطئ المجاورة.

وبذلك صارت هذه الأرض تمثل أرضاً لا صاحب لها تمارس كل القوى التجارة فيها في ظل من الحرية الكاملة، ومع اكتشاف الأوربيين لوجود كميات ضخمة من المطاط والعاج وزيت النخيل والفلو السوداني في حوض الكونغو خاصة بعد كشف ستانلي لنهر الكونغو وما كتبه عن الثروة الطبيعية في حوضه وحاجة الدول الأوربية لهذه المواد الصناعة الصابون والشمع - بدأ نشاط البيوت التجارية الضخمة في مصب النهر. وبدأت الدول الأوربية تهتم بالسيطرة على مناطق نهر الكونغو وكانت الإدعاءات الإقليمية التي حصل عليها دي برازا (De Braza) لصالح فرنسا بالإضافة إلى إدعاءات الملك ليوبولد ملك بلجيكا في هذه المناطق - مسئولة بشكل مباشر عن تلك الاتفاقية البرتغالية البريطانية التي أشرنا إليها سابقاً.

وكانت بريطانيا تهتم بحرية التجارة أكثر من غيرها في ذلك الوقت، كما كانت ترى في الاعتراف بحقوق البرتغالي في حوض الكونغو خطوة تمهيدية لفرض السيطرة البريطانية عليه

. وكانت إنجلترا تسعى إلى عقد معاهدة مع البرتغال لأنها كانت في ذلك الوقت حليفة لها وكانت إنجلترا تهتم أساساً بتسوية المشكلات الدولية في غرب أفريقيا والتي كان الكونغو يشغل جزء كبيراً منها .

استمرت المفاوضات حول الكونغو، وفي أكتوبر ١٨٨٣ نوقش موضوع الكونغو مرة ثانية وكان الخوف من نشاط فرنسا هو المسيطر على السياسة البريطانيين في هذه المفاوضات، وكانت البرتغال تخشى من نفوذ الدول الأوربية الأخرى وخاصة قوات الملك ليوبولد ملك بلجيكا التي أخذت تعمل بنشاط في حوض الكونغو، ولذا فإنها انتهزت الفرصة وفرضت نفوذها على الشاطئ الجنوبي للنهر وكانت تحبذ عقد اتفاق مع إنجلترا لأنها أقل طموحاً من فرنسا، واستمرت المفاوضات حوالي أربع وعشرين شهراً نظراً للعديد من المشاكل التي واجهت هذه المباحثات الثنائية بين الدولتين لكن انتهى الأمر بتوقيع الإتفاق البريطاني البرتغالي الذي يقضى ببسط البرتغال نفوذها على حوض الكونغو وساعد عقد هذه المعاهدة على التقارب بين ألمانيا وفرنسا رغم عدائهما السابق فقد اتفقتا على عقد مؤتمر دولي للقضاء على ما أتفق عليه في المعاهدة الانجليزية البرتغالية ووضع الأمور في نصابها، وبالرغم من أن المعاهدة قد وقعت في ٢٦ فبراير ١٨٨٤م - إلا أن اجراءات اعتمادها نهائياً من الهيئات التشريعية في الدولتين لم تستكمل في ذلك التاريخ ويرجع ذلك إلى معارضة الدول الأوربية وعلى رأسها فرنسا ثم هولندا فالولايات المتحدة وأخيراً ألمانيا.

مؤتمر برلين وما دار في جلساته

دعت ألمانيا مختلف القوى الدولية لحضور هذا المؤتمر الذي عقد في مدينة برلين في الفترة من ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ إلى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ وحضره مندوبو أربع عشرة دولة هي (النمسا والمجر وألمانيا وبلجيكا والدانمارك وإيطاليا وهولندا والبرتغال وروسيا والنرويج وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا) وقد عبر عنها باننج بقوله إن المؤتمر قد اشتمل على الست دول الكبرى في ذلك. الوقت والسبع دول البحرية ثم الولايات المتحدة الأمريكية.

عقد المؤتمر عشر جلسات كاملة بدأت الجلسة الأولى في ٢٥ نوفمبر ١٨٨٤ وعقدت الجلسة الأخيرة في ٢٦ فبراير ١٨٨٥ وصدرت قرارات المؤتمر في شكل ميثاق عام General

Act تضمن ٣٨ مادة نصت المادة ٣٨ من نصوص المؤتمر على أن المواد التي تعتمدھا الدول المشتركة سوف تصبح سارية المفعول بعد كافة الدول عتمادھا.

وبالفعل اعتمدت كل الدول المشتركة في هذا المؤتمر هذه القرارات عدا الولايات المتحدة، وقد ذكر بسمارك في اجتماع ١٩ أبريل عام ١٨٨٦ بأن الولايات المتحدة سوف تدخل في قائمة القوى التي ربما تتضمن بعد ذلك إلى نصوص المؤتمر حسب المادة ٣٧ التي نصت على أن القوى التي لم توقع على المرسوم العام للمؤتمر سوف تتضمن إليه فيما بعد ، ويمكن أن نميز بين ما دار في جلسات المؤتمر الرسمية الشاملة وبين الإتفاقيات الجانبية بين دولتين أو أكثر من دول المؤتمر.

ما تم في جلسات المؤتمر الرسمية

إن أهم المسائل التي عالجھا المؤتمر في جلساته الرسمية هي:

- الحرية التجارة في حوض نهر الكونغو

- كشفت المناقشات حول هذا الموضوع عن تقارب بين ألمانيا وإنجلترا والهيئة الدولية، وكانت هذه المجموعة تهدف إلى التوسع في عملية حرية التجارة ككل في أواسط أفريقيا، ولكن فرنسا والبرتغال عارضتا هذا المبدأ حيث سعت كل منهما إلى تضيق حدود التوسع بقدر الإمكان وظهرت القطيعة الواضحة بين أعضاء وفود فرنسا وألمانيا، وقد تعاطف بسمارك مع إنجلترا والهيئة الدولية وحلق بذلك انتصاراً ملموساً لمبادئ حرية التجارة.

وقد نجح المؤتمر بعد الجلسة الأولى في تحديد الحدود الجغرافية لحوض الكونغو وشكلت لجنة لهذا الغرض وأمكن رسم هذه الحدود التي تمتد من مناطق سقوط الأمطار على الحوافي الجبلية للأحواض المجاورة لأنهار نياري (Niari) وأجووي (Ogowe) وشاناي (Schani) ونهر النيل في الشمال وسقوط الأمطار الشرقية على بحيرة تنجانيقا في الشرق، وكذلك مناطق سقوط الأمطار على أحواض الزمبيزي ولوجي (Loge) في الجنوب، وقد أثارت البرتغال بعض المشكلات بسبب رغبتها في ضم بحيرة تنجانيقا لأملكها لكنها لم تنجح في ذلك، وأمكن الانتهاء من بحث هذه المسألة مع أوائل ديسمبر ليتفرغ المؤتمر لبحث المسألة الثانية الخاصة بحرية الملاحة في حوض النيجر.

- حرية الملاحة في حوض النيجر

نصت المادة (٣٠) من نصوص المؤتمر على أن تتعهد بريطانيا بتطبيق مبادئ حرية التجارة والملاحة في مياه النيجر وفروعه ومنافذه الواقعة تحت سيادتها، كما تعهدت بريطانيا بالعمل على حماية التجار الأجانب المنشآت وجميع التجارية في أحواض النيجر الواقعة تحت السيادة البريطانية وذلك بشرط التزام التجار بشروط وقواعد التجارة هناك.

كما نصت المادة (٣٣) على حرية الملاحة في النيجر والمياه الإقليمية خلال الحرب حيث تظل نصوص المؤتمر سارية المفعول في زمن الحرب، وعلى هذا تظل الملاحة حرة لكل الدول سواء المحايدة منها أو التي في حالة حرب.

نصت المادة (٣٤) من نصوص المؤتمر وهي من أهم المواد التي اتفق عليها في المؤتمر عي أن أي قوة تستولى على أى جزء من الأرض على سواحل القارة خارج ممتلكاتها الحالية أو التي تنوى إعلان حماية عليها - أن تخطر هذه الدولة كل القوى الموقعة على مرسوم المؤتمر حتى تتمكن من الدفاع عن ادعاءاتها الخاصة .

كذلك تقرر حق الدولة الأوربية التي تستولى على منطقة ساحلية في المنطقة الواقعة في ظهر هذه المنطقة - وهي أطلق عليها بنظرية الظهير .

واحتوى قرار المؤتمر في المادة ٣٤ على بندين .

يقضى **البند الأول** بأن أية قوة تحصل على منطقة ما في المستقبل على سواحل أفريقيا وتقع خارج ممتلكاتها الحالية عليها أن تصحب ذلك بإعلان كل القوى الأخرى في المؤتمر .

أما **البند الثاني** : فيقضى بعدم إعلان أية دولة الحماية على منطقة من القارة الأفريقية دون أن تكون هذه الحماية مؤيدة باحتلال فعلى للمنطقة على أن تقوم هذه الدول بالعمل على تقدم سكان المنطقة وتقيم بها حكومة عادلة قضائي عادل واحترام حقوق المواطنين واحترام حقوق التجارة والنقل والمواصلات.

وتكتسب المادة ٣٤ أهمية خاصة لأنها دفعت الدول الأوروبية التكالب على الاستعمار في أفريقيا بإعلان ذلك للدول الأخرى.

- أما المسائل الإنسانية مثل مقاومة تجارة الرقيق:

فقد ناقشها المؤتمر في عبارات موجزة وغامضة وبالتالي فإنها لم تشكل إلا جزء بسيطاً . أعمال المؤتمر، ولقد جاء في المادة التاسعة من نصوص المؤتمر ما يقيد حيث أن تجارة الرقيق محرمة طبقاً لمبادئ القانون الدولي، ولذا فإنه لا بد من العمل على منع الاتجار في الرقيق سواء براً أو بحراً وعلى القوى التي تمارس سيادتها أو نفوذها على بعض المناطق في حوض الكونغو أن تعلن تحريم تجارة الرقيق هناك، وعلى كل القوى أن تجند كل الإمكانيات المتاحة لوضع حد لتجارة الرقيق ومعاينة كل من يمارس العمل بها.

الاتفاقيات الجانبية على هامش المؤتمر

إذا كان المؤتمر قد عالج مثل هذه الموضوعات بشكل موسع وكرس أعضاء لمناقشة هذه القضايا - فإن مباحثات جانبية كانت تسير جنباً إلى اجتماعات المؤتمر ونجحت هذه الاجتماعات الجانبية في أن تحل بعض جنب مع المشاكل التي واجهت المؤتمر منذ انعقاده.

فيما يتعلق بالكونغو تقرر قيام دولة حرة بها تحت إدارة جمعية الكونغو التي يرأسها الملك ليوبولد - منذ كان موقف إنجلترا والبرتغال ضعيفاً لدرجة أن أعضاء من البرلمان البريطاني ذاته تهكموا على تأييد إنجلترا لوضع منطقة هامة مثل الكونغو في يد دولة ضعيفة كالبرتغال.

تقييم مؤتمر برلين

تضاربت الأقوال حول هذا المؤتمر ومدى ما حققه من نجاح بل ومدى قانونية القرارات التي اتخذها، ويقول إميل بانينج (Emile Banning) سكرتير الملك ليوبولد ورئيس وفده في المؤتمر في تقييمه للمؤتمر .

١ . أقر المؤتمر قيام دولة حرة في قلب أفريقيا الإستوائية تكون من الناحية التجارية مفتوحة لكل الشعوب، بينما من الناحية السياسية بعيدة عن المنازعات الدولية .

٢. ثبت المؤتمر مبادئ الحرية والمنافسة الشريفة بعكس التقاليد الإستعمارية البالية

٣. أتاح المؤتمر الفرصة لتقسيم القارة شمالي وجنوبي خط الإستواء بطريقة سليمة دون سفك للدماء ولا خلافات طاحنة كتلك التي صاحبت استعمار الأمريكتين.

أعظم ما حققه المؤتمر - الدور الذي عهد به لبلجيكا في حمايتها للسلام بهذه المنطقة فدولة الكونغو التي أقر المؤتمر خلقها تعتبر من وجوه كثيرة حلقة الاتصال والجسر الذي تنتقل عليه أوجه النشاط المختلفة إلى كل المستعمرات المحيطة بها.

ولعل تحليل سابيل كرو (Crowe Sabyle) استاذة القانون الدولي بجامعة اكسفورد فيما بعد للنتائج التي أسفر عنها المؤتمر أقرب للدقة والحقيقة.

فلقد جاء في تحليلها لنتائج المؤتمر ما يلي:

١ ذكر الذين دعوا لعقد المؤتمر أن من أهدافه تحقيق حرية الملاحة والتجارة في أحواض النيجر والكنغو - لكن في حقيقة الأمر قد أسفر في النهاية عن إحتكار الدول الكبرى للتجارة في المناطق التي خضعت لنفوذها في هذه الجهات .

٢- وكان القرار الإنساني الوحيد الذي اتخذ هو المتعلق بمحاربة تجارة الرقيق، ذلك فإن حوض الكونغو كما ظهر فيما بعد أصبحت تمارس فيه أبشع أعمال الوحشية التي شهدتها تاريخ الإستعمار .

وقد حاول المؤتمر أن ينظم العلاقات بين الدول الإستعمارية على أسس قانونية محددة - لكن كما سنرى أن كل ما نجح فيه المؤتمر هو أن يدفع عجل التكاليف الإستعماري على القارة الأفريقية (scramble for Africa) لتسرع الخطى - فقد أسرعت كل دولة - بعد المؤتمر - لتحقق أطماعها في القارة ولذلك فلم تمض إلا فترة قصيرة حتى كانت معظم القارة قد وقعت تحت نير الاستعمار الأوروبي.

نقطة هامة أخرى أثارها قرارات مؤتمر برلين هي مدى قانونية القرار الذي اتخذه المؤتمر فيما يتعلق بالكونغو أى مدى اتفاق هذا القرار مع الأسس العامة للقانون الدولي.

أثر مؤتمر برلين على الخريطة السياسية لأفريقيا

جاء مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ تتويجاً لجهود ومحاولات القوى الأوروبية لتنظيم عملية التكالب والسيطرة على القارة الأفريقية، ويعتبر هذا المؤتمر خاتمة المطاف لذلك الصراع الدولي الأوروبي على تلك القارة وثمره من ثمار الدبلوماسية الأوروبية في تكالبها على السيطرة على قارة برمتها مثل قارة أفريقيا.

وتكشف لنا النظرة الشمولية الخريطة أفريقيا قبل انعقاد المؤتمر أن حوالي ١٠ من مساحة أفريقيا كان في ذلك الوقت واقعاً تحت السيطرة الأوروبية، ويتمثل هذا الجزء الضئيل في استحواد فرنسا على الجزائر، وبريطانيا على حوالي مائة وثلاثين ألف ميل مربع في جنوب أفريقيا، ولكن بعد المؤتمر وفي أقل من عشرين عاماً تلت هذا المؤتمر استولى الأوروبيون على الجزء الباقي من القارة وقد تمت معظم هذه الأعمال من التقسم بعد مؤتمر برلين الذي أسفر في النهاية على تغيير ملامح الخريطة السياسية لقارة أفريقيا بعد أن نظم عمليات السيطرة والإحتلال، فاحتلت بلجيكا الكونغو وكانت بريطانيا قد احتلت مصر عام ١٨٨٢ وأعلنت حمايتها على الصومال في عام ١٨٨٤، وهي مناطق كانت تابعة لمصر وضمت بتسوانا لاند، وجنوب أفريقيا ونيجيريا، وأفريقيا الشرقية البريطانية، وتوسعت في غينيا وسيراليون وساحل الذهب وأعلنت حمايتها على أوغندا في عام ١٨٩٤ وبسطت نفوذها على السودان باسم مصر بعد ذلك بفترة قليلة .

أما فرنسا فكانت تحتل تونس عام ١٨٨١ ثم توسعت في السنغال واحتلت منطقة الكونغو الفرنسية والصومال الفرنسي وساحل العاج ومدغشقر في تلك الفترة أيضاً.

أما ألمانيا فإنها كونت مستعمراتها كلها في جنوب غرب أفريقيا والكاميرون وتوجولاند وأفريقيا الشرقية الألمانية.

وتوسعت البرتغال في غينيا البرتغالية بعد هذا المؤتمر مباشرة (غينيا بيساو) وفي أنجولا وأفريقيا الشرقية البرتغالية واحتلت إيطاليا ليبيا عام ١٩١٢، وسقطت مراكش (المغرب) تحت السيطرة الأجنبية حيث احتل الأسبان جزء من شمالها واستولى الفرنسيون على المنطقة الجنوبية، وخضعت (طنجة) لنظام دولي واستمر الوضع كذلك حتى قامت الحرب العالمية الأولى وانهزمت ألمانيا واقتسمت الدول الأوروبية مستعمراتها في أفريقيا حيث حصلت بريطانيا على مستعمرة أفريقيا الشرقية (تنجانيقا) وعلى جنوب غرب أفريقيا الألمانية وجزء من الكاميرون أضيف إلى نيجيريا، وعلى جزء من توجولاند أضيف إلى ساحل الذهب بينما حصلت فرنسا على الجزء الباقي وتنتهى بذلك قصة الصراع الأوروبي على أفريقيا وتخرج ألمانيا زعيمة عملية التقسيم والتكالب من كل هذه الغنيمة صفر اليدين وتظل بصمات مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ / ١٨٨٥ وآثاره السياسية تنعكس على القارة الأفريقية حتى بعد استقلالها .

ويعتبر مؤتمر برلين ١٨٨٤ / ١٨٨٥ من أهم المؤتمرات في تاريخ أفريقيا ويعد نقطة بارزة في الصراع الاستعماري على القارة، ففي هذا المؤتمر تم وضع أسس تقسيم أفريقيا بين الدول الأوروبية دون مراعاة لأى تكافؤ اقتصادي أو لغوي وحضاري، فقد قسم المؤتمرون القارة إلى أشلاء لا تتكافل مع لكنها تشبع أطماع الدول الأوروبية المستعمرة، ولم تنته آثار مؤتمر برلين السيئة باستقلال المستعمرات، فلعنة هذا التقسيم العشوائي تلاحق الدول الأفريقية الجديدة في صورة النزاع على الحدود أو ادعاء سيادة أو رغبة في تكامل إقتصادي بالإضافة إلى المشكلات الاقتصادية. إن كثيراً من الوحدات السياسية المكونة اليوم بحدودها الحالية ليس لها من المقومات الجغرافية أو البشرية ما يمكن أن يساعدها على البقاء أو الاستمرار كوحدة سياسية، فعندما انعقد المؤتمر استباح الإستعمار كل وسيلة فأصبح ظهر القارة يئن من التمزق الذى لا ضابط له وجسمها يئن من كثرة ما استنزف من خيراتهم والأقسام الحالية في القارة إنما تمثل التوسع السياسي لكل قوة استعمارية في حدود التوازن بين مجموع القوى.

التطورات التي مربها حوض الكونغو بعد مؤتمر برلين

١. كان مؤتمر برلين بمثابة إعلان لقيام دولة الكونغو الحرة Free State Congo تحت إدارة جمعية الكونغو التي يرأسها الملك ليوبولد دون تحديد واضح لحدودها.

٢. وفي الإقليم الشرقي : في المنطقة بين بحيرة تتجانيقا وشلالات ستانلى كان العرب الذين قدموا من الشرق ووصلوا إلى أعلى الكنغو يسيطرون على المنطقة، وكان على رأسهم حميد بن محمد المرجبي الذي اشتهر باسم (تبوتيب) والذي سبق أن استعان به ستانلى فى الكشف عن مجرى نهر الكنغو.

واستطاع المرجبي أن يكون دولة عربية في هذه المناطق، كانت عاصمتها (كاسونجو) وظل يحكمها حتى سنة ١٨٩٠ ، وخلفه ابنه المدعو (سيفو) وقد ذكر بعض الكتاب البلجيك وغيرهم أن هذه الدولة العربية كانت قد بلغت درجة كبيرة من التقدم وكانت بها قصور مؤثثة بأفخر الأثاث، كما كانت بها مساجد ومدارس عربية يدرس فيها الطلاب القرآن الكريم وبعض علوم الدين والحساب وقد اضطرت دولة الكنغو الحرة سنة ١٨٨٧ إلى الاعتراف بسلطة الزعيم العربي حميد بن محمد المرجبي فى هذه المنطقة على أن يعمل لاستتباب الأمن في هذه الجهات وأن يسمح بإقامة ممثل للسلطات البلجيكية في بلاطه.

وانتهز العرب هذه الفرصة فاستطاعوا الحصول على ما يحتاجون إليه من الأسلحة دون اعتراض من ممثلى دولة الكنغو الحرة، كما أن النجاح الذي حققه الزعيم العربي كان حافزاً لقبائل عدة لإعلان انضمامها تحت زعامته. ولكن العرب كانوا يدركون أنه حالما تشعر السلطات الحاكمة في دولة الكنغو الحرة بقوتها – فإنها لا تلبث أن تحاول القضاء على نفوذهم، وقد زادت مخاوفهم حين عمدت حكومة الكنغو إلى تحويل التجارة الأفريقية إلى غرب القارة مما ترتب عليه إضعاف مركز العرب الذين كانوا يعتمدون على صلتهم بإخوانهم في شرق القارة وفى الجزيرة العربية لترويج البضائع الأفريقية التي هي مصدر ثروتهم والتي تركز عليها قوتهم.

وقد شجع نجاح حركة المهدي فى السودان العرب في هذه المناطق على الوقوف في وجه السلطة التي مدت نفوذها إلى الكنغو والتي كانوا ينظرون إليها على أنها سلطة أجنبية دخيلة على هذه البلاد. وهكذا كان كل طرف في الحقيقة يعد نفسه للمعركة القادمة التي لا بد منها وبدأ الإصطدام بين القوتين في عام ١٨٩٢ ، واستطاعت قوات العرب بعد ذلك أن تحرز عدة انتصارات على قوات دولة الكنغو – لكنهم لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام القوات البلجيكية المسلحة بأسلحة حديثة، وفى ١٧ أبريل ١٨٩٢ تقدمت القوات البلجيكية صوب كاسونجو، وسقطت المدينة العظيمة عاصمة الدولة العربية هناك في أيديهم وقد ذهل البلجيكيون لما وجدوه

من مظاهر الحضارة والتقدم بها . واستغل البلجيكيون العمال المهرة من سكان المدينة من نجارين وحدادين وزراع وغيرهم لتعليم فئات أخرى هذه الصناعات والمساهمة في إقامة الحصون والقلاع والقرى الجديدة في الأماكن المحيطة بالعاصمة كاسونجو .

- ولم تقف أطماع ليوبولد عند هذا الحد فحين ظهر أن إقليم (كاتنجا) غنى بالنحاس أسرع (ليوبولد) لعقد اتفاقيات مع زعماء القبائل في هذه الجهات للحصول على امتيازات في هذا الاقليم .

- واتجهت أطماع الملك ليوبولد أيضاً إلى مد نفوذه من الكونغو شرقاً إلى النيل وأتاحت الظروف المحيطة بمصر والسودان - فرصة ذهبية لتحقيق هذه الأطماع فإضطراب الأحوال في مصر خاصة بعد خلع الخديوي إسماعيل وظهور الحركات الوطنية التي كان على رأسها أحمد عرابي، بالإضافة إلى قيام الثورة المهدية في السودان - أفسح المجال للأطماع البلجيكية في حوض النيل .

وحين وصلت أوروبا في سنة ١٨٨٦ أخبار تقييد بأن (أمين باشا) حاكم المديرية الإستوائية في مركز حرج بسبب الثورة المهدية التي قطعت صلته بالشمال - وجدت الدوائر الاستعمارية في أوروبا خاصة في بريطانيا - في ذلك فرصة مناسبة للتدخل وألف رئيس الجمعية البريطانية لشرق أفريقيا لجنة لجمع الأموال للشروع في تكوين حملة النجدة التي سيرأسها ستانلي، وللصلة التي كانت بين ليوبولد ملك بلجيكا وستانلي الذي عمل معه مدة طويلة، حيث وجد ليوبولد باب أمل جديد لتحقيق أطماعه في الإستيلاء على أعالي النيل واجتمع ليوبولد مع ستانلي قبل سفره في حملة الإنقاذ، ووصل ستانلي إلى القاهرة في يناير ١٨٨٧ ثم استأنف مهمته باعتباره رئيساً لحملة الإنقاذ، وعندما قابل ستانلي أمين باشا على شاطئ بحيرة البرت في مايو ١٨٨٨ إقترح عليه :

أ - إما الإنسحاب هو ومن معه من الضباط والجنود إلى مصر .

ب - أو يبقى في المنطقة كمدير في خدمة دولة الكونغو .

ج- أو يعمل في خدمة الجمعية البريطانية لشرق أفريقيا .

على أن أطماع الملك البلجيكي إصطدمت بأطماع الدول الأجنبية الأخرى، فبالإضافة إلى إنجلترا كانت لفرنسا أطماع في وادي النيل.

على أن إنجلترا رأت مصلحتها في أن تتفق مع بلجيكا، وفعلاً تم توقيع معاهدة بين الطرفين في ٢ مايو ١٨٩٤ في بروكسل أتفق فيها على أن تؤجر بريطانيا إلى الملك ليوبولد ملك بلجيكا ودولة الكنگو الحرة المناطق الواقعة قرب بحيرة البرت وتتبع تقسيم المياه بين النيل والكنغو.

على أن هذه المادة أثارت أزمة بين إنجلترا وكل من ألمانيا وفرنسا انتهت بإتفاق حكومة جلالة ملك بريطانيا مع الملك ليوبولد على إلغاء هذه المادة من الإتفاقية وصدر تصريح بذلك في يونية سنة ١٨٩٤ وأعطى الملك ليوبولد لمدة حياته فقط المنطقة التي أطلق عليها إسم (حاجز لادو) على أن تعود هذه المنطقة إلى حكومة السودان في ظرف سنة أشهر من إنقضاء مدة تملك ليوبولد لها.

وطبقاً لهذه الإتفاقية التي عقدت بين إنجلترا وبلجيكا أعيدت هذه المنطقة إلى حكومة السودان في ١٦ يونية سنة ١٩١٠ عقب وفاة الملك ليوبولد الثاني.

الكنغو مستعمرة بلجيكية حكومية

ظل الوضع في دولة الكنگو الحرة كما هو حتى عام ١٩٠٨. وفي هذا العام وافق البرلمان البلجيكي على إنهاء دولة الكنگو الحرة وإعتبار الكنگو مستعمرة بلجيكية حكومية تتبع في إدارتها وزارة المستعمرات البلجيكية.

والذي دعا إلى هذا الإجراء أن الأصوات قد أخذت ترتفع في كل أنحاء العالم ضد أعمال القسوة والسخرة التي يُعامل بها الوطنيون في دولة الكنگو الحرة ، فقد ظهر للرأى العام العالمى أن أشنع أنواع الجرائم والمخالفات للقانون الدولى ترتكب في الكنگو بواسطة ممثلى الملك - فإن الملك ليوبولد الثاني لم يكد يحصل على إعتراف العالم به حاكماً على دولة الكنگو الحرة طبقاً لقرارات مؤتمر برلين حتى القى جانباً المبادئ السامية التي كانت المبرر الذي إستند عليه ليكسب موافقة الدول إلى جانبه، ووضع بدلاً . ذلك سياسة قائمة على إحتكار تجارة المطاط

والعاج، هذا بالإضافة إلى تسخير الأهالي بطريقة بشعة لتحقيق سياسة الإستغلال التي رسمها فأصدر عدة قوانين أصبحت الكنغو بموجبها ضيعة تستغل وتستثمر لحساب التاج.

وعلى أساس القوانين السالفة الذكر أصبح كل من يوجد عنده أية كمية من المطاط أو العاج سارقاً وتوقع عليه أقصى العقوبات، وكان على ضباط البوليس يراقبوا العمال الذين يجبرون على العمل في المطاط والعاج، وحدد لكل قدر معين يقدمه يومياً، ومن يعجز عن ذلك لأي سبب تعرض لأشد أنواع العقاب وكان القتل بالرصاص وقطع الأيدي من العقوبات التي تمارس بكل بساطة والتي يقدمها المشرفون على العمال كدليل على إخلاصهم وتفانيهم أن جمع في العمل.

وساعدت السياسة التي اتبعتها سلطات (دولة الكنغو) في إخفاء الحقيقة عن كثير من الشخصيات والبعثات الأجنبية التي لم يكن يُسمح لها إلا بزيارة أماكن معينة في الكنغو حيث كانت تتركز الغالبية الأوروبية من المستوطنين، هؤلاء الزوار يشاهدون مظاهر المدنية الأوروبية متمثلة في المباني والمدارس والمستشفيات وغيرها فكانوا يكونون فكرة غير صحيحة عن الأوضاع في الكنغو .

واستمرت وسائل الإرهاب لإجبار رؤساء القبائل في الكنغو على تقديم العمال اللازمين للعمل ولتنفيذ ما يؤتمرون به وكان عدم تحقيق أرباح مقبولة لرأس المال الذي يستغله البلاط الملكي البلجيكي في الإستثمار في الكنغو معناه أعمال القسوة والوحشية والسخرية. المزيد من وظل الوضع كذلك كشف حتى القناع عن حقيقة ما كان يجري بالكنغو فأجبر الملك ليوبولد على التنازل لحكومته عن إدارة الكنغو .

الأوضاع في الكنغو

وقد ناقش المجلس هذه التقارير في عام ١٩٠٣ ونشريت بعض الصحف البريطانية صوراً كاريكاتورية للملك ليوبولد جالسا على عرش من جماجم الكونغوليين ومحاطاً بحقائب الذهب وتألفت لجنة تحقيق بلجيكية بناءً على توجيه من البرلمان البلجيكي لتقصي الأخبار وتقديم تقرير عن الوضع في الكنغو، وقدمت اللجنة تقريرها وأعترفت فيه بكل هذه المساوئ، وترتب على ذلك أن تألفت لجنة أخرى لإقتراح وسائل الإصلاح وقد أعلنت هذه اللجنة مقترحاتها

في عام ١٩٠٨ وترتب على هذا أن صدر المرسوم بإنهاء دولة الكونغو الحرة التي وجدت بناءً على قرارات مؤتمر برلين.

وتحول الكونغو إلى مستعمرة بلجيكية في ١٧ أغسطس ١٩٠٨ وأستمر كذلك حتى أعلن قيام جمهورية الكونغو المستقلة في يونية سنة ١٩٦٠ .

نظام الحكم البلجيكي في الكونغو

كان إهتمام سلطات (دولة الكونغو الحرة) موجهاً إلى ضمان خضوع البلاد للحكم الجديد والولاء له. ولذا وضع نظام إداري يحقق هذا الهدف، فوضعت السلطة التنفيذية في يد (حاكم عام) يساعده عدد من الموظفين وتوالى على دولة الكونغو الحرة عدد من الحكام أشهرهم ستانلي وكان أول حاكم لها من قبل الملك، وكان يساعد الحاكم (نائب الحاكم العام بالإضافة إلى السكرتير العام للدولة وعدد آخر من الموظفين .

وقسمت البلاد إلى ١٤ إقليمياً يدير كل منها مندوب أو مدير يمثل سلطة الدولة في إقليمه وينفذ تعليماتها وهو مسئول أمام الحاكم العام. وعهد الملك ليوبولد إلى مجلس في بروكسل يتكون من رئيس ومستشارين بمهمة السلطة التشريعية، وإن كان قد منح الحاكم العام سلطة إصدار القوانين للظروف العامة، ويعين الملك كبار موظفي الدولة وأعطى الحاكم العام سلطة تعيين باقي الموظفين .

ومن جهة الأجور كان أجر العامل الأفريقي لا يزيد عن سبع أجر العامل الأوربي الذي يقوم بنفس العمل . عن الرعاية والتوجية دون أن يكون لهم حقق مناقشة المسائل التي تخصهم أو التساؤل أسباب ما يحدث وهو ما عبر عنه نظام الوصاية الأبوية. وكانت نظرة البلجيكين للكنغوليين على أنهم أطفال قصر يحتاجون دائماً وقد تعرض كثيرون من الأفارقة لأعمال القسوة والتعذيب والإلقاء في السجون بغير ذنب واضح.

ويقسم بعض المؤرخين تاريخ البلاد الإقتصادي إلى ثلاث فترات متميزة هي:

الفترة الأولى (١٨٨٥ - ١٩٠٨) وهي فترة الإستغلال غير المنظم وهي الفترة التي قامت فيها ما سميت بدولة الكنغو الحرة، وفي هذه الفترة استغل الأهالي واستغلت أراضيهم إلى أبعد حد، فقد أعتبرت أرض الكنغو ومن عليها ملكاً للملك ليوبولد الثاني.

الفترة الثانية (١٩٠٨ - ١٩٢٠) : فترة إستثمار المواد الخام والمعادن من أجل الإتجار بها كما هي دون بذل أي جهد لتقدم الأهالي أو تحسين أحوالهم أو تدريبهم على استغلال موارد بلادهم.

الفترة الثالثة (١٩٢٠ - ٣٠ يونية (١٩٦٠) : فترة التصنيع والتقدم الزراعي، مع عدم إتاحة الفرصة للكنغوليين لمباشرة الحقوق السياسية وذلك عملاً بسياسة الوصاية الأبوية التي أشرنا إليها سابقاً والتي تنتظر للشعب على إنه غير كفاء للإضطلاع بمهام الحكام والإدارة .

وحين تسلمت الحكومة البلجيكية إدارة الكنغو سنة ١٩٠٨ بدأت تبذل بعض الجهد فأنشأت إدارة للصحة في ليوبولد، وفي سنة ١٩٢٢ أنشأت معهداً لطب المناطق الحارة في انتورب.

وكان نشاط الشركات والهيئات الأهلية والتبشيرية في هذا المجال أكثر من نشاط الحكومة البلجيكية - لكن تركز إهتمام هذه الشركات أولاً على خدمات موظفيها خاصة الأوربيين منهم ثم أخذ هذا النشاط يتجه أيضاً للوطنيين في الثلاثينات من هذا القرن.

ذلك فإن الاحصائيات الرسمية التي نُشرت لعدد المستشفيات والأطباء ومساعدتهم من القائمين على علاج الأفريقيين - تدل دلالة واضحة على أنه حتى هذه الناحية الانسانية لم تكن تلقى من اهتمام الأوربيين حتى ما تحتمه ومع مبادئ الاستغلال السليم.

الحركة الوطنية واستقلال الكنغو

حرصت بلجيكا على فرض ستار حديدي يحول دون إتصال الكنغو بالتيارات التي تجرى في القارة، كما منعت قيام الأحزاب السياسية - لكن لم تستطع أن تحافظ على هذه العزلة العجيبة إلى الأبد فكان لابد أن تهز الكنغو أحداث الحرب العالمية الثانية وما تموج به القارتان الأفريقية والآسيوية من حركات تحررية .

وحاولت بلجيكا أن تواجه المشكلة بحل آخر فأصدرت بعض التشريعات عام ١٩٥٧ بإنشاء مجالس المديریات والمجلس الإستشاري العام للكنغو ولكن عدد الأفريقيين في هذه

المجالس بوضعها السابق شرجه لم تكن البديل السليم للنظام التشريعي الذي يطالب به الكونغوليين، بالإضافة إلى المشكلات الأخرى الخاصة بالأجور والمساواة في الحقوق لكافة المواطنين دون مراعاة اللون، وكذلك الإصلاحات الإجتماعية التي أخذ بعض الكونغوليين يشعرون أن مجتمعهم في ميسس الحاجة إليها ولم يلبث أن ظهرت عدة أحزاب وطنية مثل حزب أباكو الذي رأسه كازافوبو وحزب الحركة الوطنية الكونغولية وكان على رأسه (باتريس لومومبا) وحزب التضامن الأفريقي الذي رأسه انطون ، وكانت المظاهرات العنيفة التي اجتاحت ليوبولد فيل في يناير ١٩٥٩ نذيراً بتطور الحوادث في الكونغو مما دعا ملك بلجيكا الملك بودوان (Baudouin) لأن يصدر بياناً يعد فيه بمنح الكونغو الإستقلال، كما تشكلت بعثة برلمانية للتحقيق في أسباب الإضطرابات وما تراه من وجوه الإصلاح.

وتجددت الإضطرابات في أواخر عام ١٩٥٩ خاصة في (ستانلي فيل) عاصمة الإقليم الشرقى وموطن (باتريس لومومبا) الذي أعتقل بتهمة تدبير الإضطرابات .

واضطرت السلطات البلجيكية للإفراج عن باتريس لومومبا ليشارك في مؤتمر المائدة المستديرة في بروكسل الذي عُقد في مستهل عام ١٩٦٠ وحضره ممثلون للأحزاب الكونغولية المختلفة وأنهى المؤتمر جلساته في ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٠، وتقرر إعلان استقلال الكونغو يوم ٣٠ يونية ١٩٦٠.

واجريت الانتخابات وتولى على أثرها لومومبا رئاسة الحكومة - ولكن حاولت بلجيكا أن تحقق بالخيانة والدسياسة ما لم تستطع تحقيقه بالوسائل العادية فعزل لومومبا في ستمبر عام ١٩٦٠ واعتقل ثم نقل إلى كاتنجا وحل محله عميل بلجيكا (تشومبي) وأغتيل لومومبا في ١٧ يناير ١٩٦١.

لكن رغم ذلك استطاعت الكونغو أن تحافظ على استقلالها وأن تدخل بعد ذلك عضواً في منظمة الوحدة الأفريقية منذ قيامها في عام ١٩٦٣، وفي ٢٤/١١/٦٥ تولى السلطة في البلاد الرئيس موبوتو سيسيكو، وفي ٢٧/١٠/٧١ تغير إسم البلاد إلى جمهورية زائير وهو الإسم الذي كان يعرف به حوض الكونغو قبل الإستعمار .

إنهاء حكم موبوتو

حكم موبوتو البلاد حكما دكتاتوريا - وانفرد بالسلطة واستغل ثروة البلاد الطائلة للاثراء وقد قامت في الأقليم الشرقى (شابا) حركة انفصالية لكن نجح موبوتو - بمساعدة قوات من المغرب ومن فرنسا - فى قمع هذه الحركة - وقد حثته الدول التي أيدته في حربه ضد الخارجين على حكومته على إدخال النظم الديمقراطية في نظام حكمه . وقد شهدت الكونغو فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين اضطرابات عدة وكان موبوتو فى الفترة الأخيرة من حكمه مريضا بسرطان المثانة ويعالج في هولندا. وقد نجح (رولان كابيلا) في ١٧ مايو عام ١٩٩٧ في أن يدخل العاصمة كينشاسا على رأس عدد من المسلحين من قبائل التوتسى سرا وأعلن كابيلا عزل موبوتو وغير اسم زائر إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية لكن حدثت حركة تمرد ضد حكم رولان كابيلا - وفى ١ يوليو ١٩٩٩ وقع في لوركا عاصمة رامبيا اتفاق لوقف اطلاق النار فى الكونغو ووافقت عليه كل من أوغندا ورواندا اللتين كاننا تدعمان المتمردين وكذلك زيمبابوى وانجولا وناميبيا التي أيدت كابيلا لكن لم تنفذ بنود الاتفاق - وفى ١٥ يناير ٢٠٠١ أغتيل رولان كابيلا برصاصة أطلقها عليه أحد حراسة وقرر المؤيدون لكابيلا أن يخلفه ابنه جوزيف كابيلا في الحكم وفى قيادة القوات المسلحة .

الفصل السادس

تجارة الرقيق

- بريطانيا وتجارة الرقيق
- حركة المطالبة بإلغاء الرق
- الجهود الأفريقية لإلغاء الرقيق
- أثر إلغاء الرق على المجتمعات الأفريقية

تجارة الرقيق

كانت تجارة الرقيق من أبرز مظاهر النهب الإمبريالي لأفريقيا، واكتوت بناورها المجتمعات الأفريقية سواء في غربى القارة أو شرقها، فتركت آثاراً مدمرة على المجتمعات البشرية الأفريقية، وشكلت مأساة تاريخية إنسانية، ولم تكن تلك التجارة هدفاً - في حد ذاتها - للسيطرة الإمبريالية على أفريقيا عندما طرقت القوى الأوروبية أبواب القارة في القرن الخامس عشر، ولكنها أصبحت دعامة النهب الاستعماري منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، على نحو ما سنرى فقد كان جل اهتمام الأوروبيين عند بداية زحفهم على القارة الأفريقية منصرفاً إلى تجارة الذهب والعاج والفلل، كما أن أفريقيا لم تتح للأوروبيين - في تلك المرحلة - فرصة الاستقرار كما كانت الحال في أمريكا أو جزر البحر الكاريبي بسبب ظروف المناخ، وصعوبة المواصلات، وانتشار الأمراض التى لم يعرفها الرجل الأبيض من قبل. فكانت علاقة الأوروبيين بالأفارقة علاقة تبادل تجارى يحصل فيها الأوروبيون على الذهب والعاج والفلل مقابل بعض السلع المعدنية البسيطة والأقمشة ثم دخلت المشروبات الروحية بعد ذلك ضمن السلع الأوروبية التي تصدر إلى أفريقيا، وكذلك الأسلحة النارية.

وحدث تحول فى التجارة الأفريقية أصبح الرقيق فيه في طليعة السلع الأفريقية، وذلك فيما بين منتصف القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر، وكان الدافع إلى هذا التغيير زيادة الطلب على العبيد للعمل فى المزارع الأمريكية ولم تكن تجارة الرقيق بدعة أوروبية مستحدثة إذ عرفتتها التجارة الأفريقية من قبل، فقد جرت عادة حكام غرب أفريقيا على تصدير بعض العبيد إلى المغرب العربي، ومن ثم كانت تجارة الرقيق الأوروبية - في تلك المرحلة بمثابة توسع فى الطلب على سلعة معينة شجع تجار الذهب الأفارقة على التحول إلى تجارة الرقيق، وكان مصدر تلك التجارة - في بداية الأمر يأتي من بين أسرى الحروب التي كانت تنتش بين القبائل وبعضها البعض، أو من بين أولئك الذين يفقدون حريتهم نتيجة الوقوع في رقة الدين.

وجلب التحول إلى تجارة الرقيق الحرب والدمار إلى المجتمعات الأفريقية الآمنة المطمئنة، فغذى تجار الرقيق نيران حروب محلية في الشمال والشمال الشرقي للحصول على المزيد من الرقيق مستخدمين الأسلحة النارية، وتحول تبعاً لذلك المركز التجاري لغرب أفريقيا من منطقة السافانا وشمال أفريقيا إلى سواحل جنوب غربى القارة، حيث استقر التجار الأوروبيون في

مستوطنات على الساحل، استأجروا أرضها من القوى المحلية الأفريقية، وأقاموا عليها حصوناً تحميهم من غارات منافسيهم الأوروبيين . وتحولت تلك القلاع إلى جيوب أوروبية على طول الساحل الجنوبي الغربي، استقرت فيها حاميات عسكرية قوية، وكان أول الحصون التي بنيت في المنطقة هو ذلك الذي أقامه البرتغاليون على ساحل الذهب وكان يعرف بإسم ساوجورج دي ميناء، ثم أصبح يعرف - بالمينا ELMINA، وتم بناءه في عام ١٤٨٢ وبانتشار تلك الحاميات على الساحل الجنوبي الغربي إزداد حجم التجارة الأوروبية - الأفريقية، وانعكست آثارها على - فيما بعد المجتمع الأفريقي ذاته.

فقد أدى التنافس بين القوى الأوروبية وبعضها البعض إلى قيام تحالفات بين كل قوة أوروبية وإحدى الجماعات الأفريقية ومع احتدام المنافسة اشتد الصراع وانعكست على المجتمعات الأفريقية ذاتها، فجرت التحالفات إلى صراعات أريقت فيها الدماء الأفريقية حيث حرصت المراكز التجارية الأوروبية المتناثرة على الساحل على عدم قيام كيانات أفريقية قوية في الداخل حتى لا يتأثر تدفق الرقيق على الساحل، ومن ثم زجوا بحلفائهم الأفارقة في معارك ضد إخوانهم في الداخل حققت هدفين: أولهما، الإبقاء على التمزق السياسي في الداخل، وثانيهما الحصول على المزيد من الرقيق من بين أسرى الحرب.

وهكذا لم يدم احتكار البرتغاليين لتجارة غرب أفريقيا فقد زاحمهم الفرنسيون ثم الإنجليز فالهولنديين، وأدى اتحاد أسبانيا والبرتغال عام ١٥٨٠ إلى فقدان البرتغال لمواقعها الحصينة على ساحل الذهب، ولقيت المصالح البرتغالية ضربة قاضية بفقد حصن المينا ١٦٣٧ واكسيم ١٦٤٢ أى بعد عامين من إدخال زراعة قصب السكر في جزر الهند الغربية، ولم يستطع البرتغاليون إقامة مركز لهم على ساحل العبيد الغربي إلا بعد ذلك بثمانين عاماً، وحتى ذلك المركز لم يتم بجهود لشبونة ولكنه قام بجهود البرازيل التي كانت مستعمرة برتغالية.

وباستثناء شركة الهند الشرقية الهولندية، لم يكن النجاح حليف المصالح الأوروبية الإحتكارية التي مارست نشاطها على ساحل العبيد في النصف الثاني من القرن السابع عشر. فقد قضت حروب الأراضي المنخفضة على مغام شركة التجار المغامرين الإنجليزية، كما دب الفساد في الشركة الأفريقية الملكية التي كانت نهياً للعاملين فيها، ولم تجلب تجارة الرقيق لهذه الشركة عائداً ذا بال مقارنة بتجارة التبر والعاج وغيرها من سلع الإقليم. وهكذا غرقت الشركة

الأفريقية الملكية في الديون وعبثاً حاولت أن تحمي مصالحها في مواجهة المنافسة الأجنبية، فتمت تصفيتها وانتقلت إمتيازاتها إلى شركة التجار المغامرين.

كانت الشركات الفرنسية المشتغلة بتجارة العبيد أقصر عمراً، ففيما بين عام ١٦٦٤ و ١٦٨٤ ورثت ثلاث من الشركات إمتياز شركة الهند الغربية الفرنسية الواحدة تلو الأخرى دون أن تعمر إحداها طويلاً حتى استقر الإمتياز في يد شركة غينيا (وهي شركة فرنسية) من ١٦٨٥ حتى ١٧١٣، التي عجزت عن الوفاء بالتزامها بتوريد ٤٨٠٠ عبد سنوياً إلى المستعمرات الأسبانية، و ٣٠٠٠ عبد إلى جزر الأنتيل الفرنسية، ولم تنجح إلا في إقامة حصن سان لويس (١٧٠٤) الذي انتقلت ملكيته إلى شركة الهند الفرنسية في عام ١٧٢٠، وظل بيدها حتى سقطت تجارتها نتيجة حرب السنوات السبع.

وتشير مصادر تجار الرقيق الأوائل أن مدينة هويدا كانت من أنشط مراكز تجارة الرقيق طوال نصف القرن قبل أن تدخل ضمن مملكة أبوسى، إذ تذكر أن هويدا قدمت للمراكز التجارية الإنجليزية ما تراوح بين ١٤ ١٥ ألفاً من العبيد سنوياً في الثمانينات من القرن السابع عشر. وذكر أحد الفرنسيين أن عدد العبيد الذين بيعوا في ستة شهور بلغ ٢٣٠٠ عبداً، وأن ما يطرح للبيع من العبيد في كل شهر لا يقل عن مائتي عبد، ولكن كان يعيب هذا المركز الهام لتجارة العبيد صعوبة الوصول إليه أحياناً بسبب ضراوة الأعاصير بين أبريل ويوليو، غير أن المغامرات التي كانت تعود من وراء تجارة الرقيق شجعت التجار على ركوب الأخطار

غير أن هويدا لم تتفرد وحدها بتجارة الرقيق دون الكيانات المحلية الأخرى، فقد أدت أرباح تلك التجارة وتشجيع الأوروبيين لها، وزيادة الطلب عليها، إلى تنافس القوى الأفريقية المحلية مع بعضها البعض من أجل الفوز بنصيب الأسد في تلك التجارة. وهكذا تعرضت هويدا للمنافسة من جانب أدجا ADGA وسافى SAVI غير أن العبيد ظلوا يتدفقون على سوق هويدا من مسافات تبعد نحو مائتي ميل داخل القارة. وبلغت تجارة الرقيق في هويدا ذروتها بحلول عام ١٧١٦ حيث كان الفرنسيون وحدهم يصدرون ما يقرب من ستة آلاف عبد سنوياً، على حين كان الإنجليز والبرتغاليون معاً يصدرون ما يقرب من سبعة آلاف رأس من العبيد، وصدر الهولنديون نحو ١٥٠٠ عبداً. وكانت أسعار بيع العبيد تحدد على أساس المقايضة فيساوى كل عبد أو مجموعة من العبيد قدرها معيناً من السلع الأوروبية كالأقمشة والخرز والبنادق والبارود

والمشروبات الكحولية والتبغ والقضبان الحديدية. وقد بلغ ثمن العبد في الخمسينات والستينات من القرن السابع عشر ما يعادل ثلاثة جنيهات إسترلينية، ثم ارتفع ثمن العبد في عام ١٦٦٩ فبلغ ثمانية جنيهات ، ويرجع ذلك إلى زيادة أسعار البارود الذى كان يدخل ضمن السلع التي يبادل بها الأوروبيون العبيد، بقدر ما يرجع إلى تنافس التجار الأوروبيين على الشراء.

وتعرضت هويدا في منتصف العشرينات من القرن الثامن عشر إلى الغزو من جانب جاراتها الأفريقيات بهدف السيطرة على تلك السوق الكبيرة واستمر الصراع بين الكيانات الأفريقية لما يزيد عن أربعين عاماً إنتقلت خلالها السيطرة على سوق الرقيق الأفريقية من يد إلى أخرى خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

بريطانيا وتجارة الرقيق

أخذت دول أوروبا الغربية تطور أساليب سياستها الإمبريالية في النصف الأول من القرن السابع عشر في المجال التجارى فركزت تلك الدول جهودها على توسيع التجارة من أجل رخائها الاقتصادى. ولما كانت التجارة الدولية محددة الحجم، فقد شرعت كل دولة تزيد من نصيبها من تلك التجارة على حساب الدول المنافسة لها ومن ثم سعى الإنجليز خلال ذلك القرن إلى التحكم في الأسواق التي كان يسيطر عليها الهولنديون أو الفرنسيون أو الأسبان أو البرتغاليون فيما وراء البحار. ولما كان الإنجليز قد أخذوا في التوسع في استعمار أمريكا وجزر البحر الكاريبي جزر الهند الغربية، فقد كانوا في أمس الحاجة إلى عمل العبيد في وقت كانت فيه تجارة الرقيق حكرة للهولنديين، ودفعهم ذلك إلى تثبيت أقدامهم على ساحل العبيد فيما بين ساحل الذهب وبينين كما دفعتهم إلى محاربة الهولنديين من حين لآخر.

واستمر ذلك يمثل خطأ ثابتاً للسياسة البريطانية في عصر ستيفارت والكمولث (كرومويل)، لأن الطبقة صاحبة النفوذ السياسي في بريطانيا - في ذلك الحين - كانت طبقة التجار التي وجهت سياسة الدولة إلى خدمة مصالحها، وخاصة فيما يتعلق بالتجارة الخارجية. ولا ريب أن معظم الصعاب التي واجهت جيمس الأول كانت ترجع إلى عدم تحمسه وتبنيه لقضايا التجار، كما أن قوانين الملاحة التي صدرت في عهد كرومويل ، وجعلت نقل الواردات إلى

بريطانيا قاصراً على السفن الإنجليزية أدت إلى الدخول في حرب مع الهولنديين، كما أن كرومويل وإليزابيث كانا يخشيان جانب أسبانيا أكثر من خشيتهم جانب الهولنديين أو الفرنسيين.

غير أن الهولنديين ثم الفرنسيين أصبحوا في طليعة منافسى بريطانيا فيما وراء البحار، لأن الأسبان والبرتغاليين كانوا يفتقرون إلى طبقة تجار متمرسة تحكم الاستفاده من الأسواق التي بلغت أساطيلها، ولذلك تلاشى خطرهما بمجرد اكتمال نضج طبقة التجار في هولندا وانجلترا وفرنسا.

فإذا كان لابد من تحديد سنة بعينها تبدأ بها تجارة الرقيق الإنجليزية، فإن تلك السنة هي عام ١٦٤٠، حيث بدأ المستعمرون الإنجليز في بريادوس (إحدى جزر البحر الكاريبي) في زراعة قصب السكر التي فتحت الباب على مصراعيه أمام الطلب على العبيد في الممتلكات الإنجليزية عبر الأطلنطي. وقد اعتمد زراع القصب الإنجليز على التجار الهولنديين - في بداية الأمر - لسد حاجتهم إلى الرقيق ولكن عندما توسعت تجارة السكر الذي كانت تنتجه جزيرة بريادوس وغيرها من جزر البحر الكاريبي وجد الإنجليز أنه من الأفضل لهم التخلص من الإعتماد على الهولنديين في سد حاجتهم من الرقيق، ورأوا أن يأخذوا على عاتقهم الإشتغال بهذه التجارة، لأن بقائها في يد الهولنديين يعني فقدان التجارة الإنجليزية لجانب من الأرباح التي يمكن تحقيقها من وراء تجارة السكر لصالح خصومهم الهولنديين، فمنح شارل الثاني لمجموعة من التجار الإنجليز إمتياز الإتجار مع أفريقيا وتكوين شركة لهذا الغرض عرفت بإسم شركة المغامرين الملكيين لأفريقيا"، ثم تغير إسم هذه الشركة في ١٦٧٢ إلى الشركة الأفريقية الملكية " وكان الملك نفسه من بين حملة أسهمها وأنيط بهذه الشركة من المستعمرات البريطانية بثلاث آلاف عبد سنوياً على أن يكون ثمن العبد الواحد معادلاً لثمن طن واحد من السكر (أى ١٧ جنيهاً إسترلينياً).

غير أن الشركة ضاقت ذرعاً باقتصار تجارتها على المستعمرات البريطانية وحدها، فأخذت تباع العبيد للمستعمرات الأسبانية والفرنسية مما أثار احتجاج زراع قصب السكر الإنجليز حتى لا يؤدي ذلك إلى إرتفاع أسعار العبيد ولكن احتجاجاتهم ذهبت أدراج الرياح بسبب العائد المجزى الذى كانت تدره تجارة الرقيق التي أصبحت مجالاً استثمارياً قائماً بذاته بعد أن كانت ترتبط بالطلب على العبيد في مزارع قصب السكر، وحققت تجارة الرقيق البريطانية إنتصاراً

ضخماً في معاهدة أوترخت ١٧١٣ التي أنهت حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠١ - ١٧١٣) حين حصلت بريطانيا على حق مد المستعمرات الأسبانية بحاجتها من الرقيق.

وهكذا سجل القرن الثامن عشر ذروة الرخاء الاقتصادي لبريطانيا، وزاد حجم الصادرات البريطانية، وتنوعت وارداتها لتسد حاجة الجماهير الواسعة لأول مرة) فشملت البين والشاي والسكر والتبغ التي زاد استهلاكها في بريطانيا على مدى القرن. فكان القطن يرد من المستعمرات ليصنع في لانكشير ثم يعاد تصديره في شكل منسوجات قطنية . وكانت السفن تغادر ليفربول حاملة المنسوجات القطنية إلى أفريقيا، فتفرغ حمولتها من القطن هناك، ثم تحمل العبيد متجهة إلى أمريكا أو جزر الهند الغربية حيث تفرغ حمولتها من العبيد، وتعود إلى بريطانيا بشحنات من القطن أو السكر أو التبغ.

وبعد أن تخلص الإنجليز من المنافسة البرتغالية ثم الهولندية في تجارة الأطلنطي، قضوا معظم القرن الثامن عشر في التصدي للمنافسة الفرنسية، حتى أصبحت تجارة الأطلنطي وفقاً عليهم، ففي عام ١٧٧١ بلغ عدد السفن الإنجليزية التي غادرت موانئ إنجلترا قاصدة أفريقيا ١٨٨ سفينة حملت خمسون ألفاً من العبيد إلى أمريكا وكانت الأرباح التي حققتها تجارة الرقيق والنشاط التجاري المرتبط بها حجر الزاوية في الرخاء الاقتصادي الذي تمتعت به بريطانيا في ذلك القرن، والذي مهد الطريق أمام الثورة الصناعية وما ترتب عليها من فتح مجالات واسعة للثراء، حين رسخت أقدام الرأسمالية الصناعية. وبوقوع هذا التطور، فقد اقتصد المزارع الذي كان دعامة النهب الإمبريالي لأمريكا وجزر الهند الغربية أهمية مقارنة بما كانت تدره الاستثمارات الصناعية، وفقدت بالتالي تجارة الرقيق أهميتها الاستثمارية، وأصبح بالإمكان الاستماع إلى المطالبين بإلغاء تلك التجارة اللاإنسانية.

حركة المطالبة بإلغاء الرق

فقد قامت في بريطانيا حركة تدعو إلى إلغاء الرق وإيقاف تجارة الرقيق، وترددت أصداً تلك الحركة في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية فيما بين ١٧٨٣ و ١٨٨٨. ورغم ما اتسمت به تجارة الرقيق من اللاإنسانية، إلا أنها لم تشر اعتراض أحد حتى حلول القرن الثامن عشر فبدأ المفكرون المستنيريون في توجيه الإنتقادات إلى تلك التجارة لمنافاتها لحقوق الإنسان، كما أن

الجماعات الدينية أدانت تجارة الرقيق باعتبارها نشاطاً لا تقبله المسيحية. وبدأ المنادون بإلغاء الرق يفكرون في إيجاد حلول اجتماعية لمشاكل الرقيق تضمن لهم حياة كريمة بعد إلغاء الرق، وكان المفكرون الفرنسيون أرسخ قدماً في هذا المجال.

وفي أواخر القرن الثامن عشر إتسع نطاق حركة المطالبة بإلغاء الرق، والتف حولها الأنصار، وحقت قدراً من النجاح. ففي إنجلترا نجح جرانفيل شارب في استصدار حكم (عام ١٧٧٢) قضى بحظر امتلاك العبيد في إنجلترا لمنافاة ذلك للقانون الإنجليزي. كما أدان قادة الثورة الأمريكية الرق، وقامت الولايات الواقعة إلى الشمال من ماريلاند بإلغاء الرق تدريجياً أو دفعة واحدة وذلك فيما بين عام ١٧٧٧ و ١٨٠٤، بينما قام في الولايات الجنوبية العديد من الجمعيات لتشجيع ملاك العبيد - على فك رقابهم - ولكن ذلك القدر من النجاح الذي حققته الحركة في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر لم يكن ذا بال بالنسبة لمراكز الرق في المزارع الكبرى في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وجزر الهند الغربية، وأمريكا الجنوبية، فكانت الحركة تتقدم ببطء شديد ف تلك الجهات.

وقد مرت حركة إلغاء الرق بمراحل ثلاث

شملت المرحلة الأولى الجهود الأمريكية والإنجليزية لتحريم جلب العبيد الأفارقة إلى المستعمرات الإنجليزية والولايات المتحدة الأمريكية وقد شنت جماعة الكويكرز الإنجليزية حملة لتحقيق هذه الغاية في عام ١٧٨٢، ثم تكونت جمعية إلغاء الرق في عام ١٧٨٧ بزعامة وليم ولبرفوس الذي قاد الحركة في البرلمان الإنجليزي، وتوماس كلاركسن الذي بذل جهوداً مضنية في إقامة الأدلة على مضار تجارة الرقيق، وبعد نحو عشرين عاماً تلك الجهود الغيت تجارة الرقيق في المستعمرات الإنجليزية من عام ١٨٠٧، وتم إلغاؤها في الولايات المتحدة في نفس السنة.

واعتقد المشتغلون بحركة إلغاء الرق أن توقف العرض في سوق العبيد سوف يؤدي إلى اختفاء الرق تدريجياً، ولكن ذلك لم يحدث بالفعل، مما دفعهم إلى المطالبة بتحرير العبيد في المرحلة الثانية من مراحل تلك الحركة. فتأسست جمعية مكافحة الرق في بريطانيا عام ١٨٢٣ بزعامة توماس فويل باكستون الذي تولى زعامة هذا الإتجاه في البرلمان فنجح عام ١٨٣٣ في

استصدار قانون قضى بتحرير العبيد في المستعمرات الإنجليزية بعد ست سنوات من تاريخ صدور القانون مع تعويض ملاكهم ماديًا. وفي عام ١٨٤٨ ألغت فرنسا الرق في مستعمراتها بجزر الهند الغربية واحتاج إلغاء الرق في الولايات المتحدة الأمريكية إلى حرب أهلية اشتعل أوارها بين الولايات الشمالية والجنوبية مدة خمس سنوات (١٨٦١ - ١٨٦٥) إنتهت بتحرير العبيد تحريراً تاماً في عام ١٨٦٥.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة، فقد استهدفت إلغاء تجارة الرقيق على النطاق العالمي ، وترزمت بريطانيا هذا الإتجاه مطالبة بحق تفتيش السفن التي يشتبه في حملها للعبيد وبذلك تضمن لأسطولها حق مراقبة التجارة الدولية، وبدأ ذلك في مؤتمر فيينا ١٨١٥ حين وافقت الأطراف المشتركة على إلغاء تجارة الرقيق ولكن تردد بعضها في الموافقة على تحويل الأسطول البريطاني حق تفتيش السفن التابعة للدول الأخرى . وبذلك ظلت تجارة الرقيق نشطة وازدهرت تجارة تهريب العبيد إلى البلاد التي حرمت الإتجار في الرقيق، حتى أن ما صدر من غرب أفريقيا من الرقيق بلغ ٥٠ ألفاً في عام ١٨٥٠ وبتوقيع الولايات المتحدة على اتفاقية إلغاء تجارة الرقيق وتسليمها لبريطانيا بحق التفتيش (١٨٦٢) تتابع تصديق الدول على هذه الإتفاقية، وبذلك وضع حد لتجارة الرقيق. ولكن الآثار التي ترتبت على تلك التجارة بالنسبة لأفريقيا استعصت على العلاج.

جهود أفريقية لمقاومة تجارة الرقيق :

فى الوقت الذى كانت بريطانيا توالى جهودها لمقاومة الرق مع الدول الأوروبية قامت بضغط مماثل مع الزعماء الأفارقة، وعقدت معهم حوالي ١٥٠ معاهدة صداقة وسلام تنازل الزعماء بمقتضاها عن أجزاء من بلادهم لبريطانيا وتعهدوا فيها بالامتناع عن الاتجار فى الرقيق ، وكان هذا فى مقابل بعض الهدايا من الأقمشة والاطباق والخمور - وليس معنى عقد هذه المعاهدات ان الزعماء الأفارقة لم يقوموا بعمل ايجابى من وحى أنفسهم من واقع الشعور بالمسئولية للقضاء على هذه التجارة ، فهناك بعض الجهود الأفريقية لمقاومة تجارة الرقيق وبدأت تلك الجهود فى عام ١٥٢٦ عندما كتب الملك المشهور لدولة باكونجو (Bakongo) التابعة للكونغو (قرب مصب النهر) خطابا يحتج فيه على ملك البرتغال ألفونسو ويشكو إليه بان تجارة الرقيق قد سببت أضرارا كثيرة لدولته .

وفى داهومى على ساحل أفريقيا الغربي أرسل الملك أجاجا (Agaja) جيشه للاستيلاء على مدينة اداره (Ardrah) في عام ١٧٢٤ بقصد القضاء على تجارة الرقيق وأرسل خطابا إلى الحكومة البريطانية يخبرها برغبته فى إيقاف تصدير الرجال والنساء من شعبه ، وشرح لهم الأضرار التي عادت على دولته من جراء هذه التجارة البشعة . ومثال آخر أورده رحالة سويدي فى عام ١٧٨٩ عندما زار الإمامة فى فوتاتوره فى شمال السنغال وقد كتب هذا الرحالة بانة فى فوتاتور أصدرت قانوناً ينص على عدم أخذ أى رقيق من فوتاتور للبيع فى الخارج ولقد حاولت السفن الفرنسية إرغام الإمام على انتهاء العمل بهذا القانون ، ولكنه رفض هذا بالإضافة إلى عدة محاولات أخرى فى منطقة (بنين) ولكنها باءت بالفشل ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن تجارة الرقيق كانت جزءا أساسيا من النظام التجارى لغرب أفريقيا حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وذلك للعمل فى المناطق الاستوائية الأمريكية -

وفى أوائل السبعينات من القرن التاسع عشر بدأت حكومة الولايات المتحدة تبذل جهودا جادة للقضاء على هذه التجارة ولم يأت عام ١٨٦٥ حتى كانت تجارة الرقيق عبر الأطلسى قد انتهت، وشهد فى الجنس البشرى فقامت بريطانيا بعقد بعض المعاهدات مع الدول من أجل القضاء على الرق ، ومن أبرز تلك المعاهدات هذه المعاهدة مع سلطان زنجبار فى الخامس من يونية ١٨٧٣ ، ونصت على منع تصدير العبيد فى ممتلكات سلطان زنجبار وإغلاق كل الأسواق العالمية التى تقوم فى مملكته بالتعامل فى الرقيق.

كما عقدت بريطانيا معاهدة مع مصر فى الثالث من أغسطس ١٨٧٧ جاء فى مادتها الخامسة بتعهد الحكومة المصرية بنشر أمر خصوصى يرفق بالمعاهدة ويكون من مقتضاه منع بيع الرقيق بالكلية فى أرض مصر ابتداء من تاريخ نشر الامر المشار اليه مع تخصيص نوع الجزاء الذى يترتب على من يخالف ذلك .

وعلى المستوى الدولى واصلت بريطانيا جهودها مع بقية الدول الأخرى على أن تتضمن كافة اللقاءات الدولية ما يفيد إلغاء الرق وتحريم الإتجار فيه ، وجاء ذلك فى مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ / ١٨٨٥ حيث نصت المادة التاسعة من نصوص المؤتمر على أنه نظراً لأن تجارة الرقيق ممنوعة طبقاً لمبادئ القانون الدولى الذى تعترف به القوى الموقعة على مرسوم المؤتمر ونظراً لأن عمليات نقل الرقيق براً وبحراً ممنوعة، لذا فإن القوى التى لها حقوق سيادة أو نفوذ فى

المناطق التي تكون حوض الكونغو، تعلن أن هذه المناطق لن تستخدم كسوق للرقيق وتلتزم كافة القوى باتخاذ كافة الوسائل لوضع حدا لهذه التجارة ومعاينة المشتغلين بها .

وفي مؤتمر بروكسل الذي عقد في الثاني من يوليو ١٨٩٠ لبحث مسألة الرقيق الأفريقي نلاحظ أن معظم مواد هذا المؤتمر تدو حول القضاء على تجار الرقيق ، وتنظيم عمليات القضاء عليها . وقد أفاض المؤتمر كثيراً في النقاط والبنود التي تتعلق بالقضاء على هذه التجارة فلقد نصت المادة الثالثة على أن تتعهد القوى التي تمارس السيادة أو الحماية على مناطق في أفريقيا أن تعمل على القضاء عليها باى وسيلة فعالة ومن حق القوى التي تفوض مسؤولياتها إلى شركات ذات براءة في كل المناطق الواقعة تحت سيادتها، وتصل هذه القوى مسئولة بشكل مباشر عن تنفيذ هذه البنود .

ويقع هذا المؤتمر في سبعة فصول تضمنت مائة مادة تدور كلها حول تجارة الرقيق والأسلحة النارية ، وقد أشتمل الفصل الأول على مواد خاصة بالتنظيم الإداري والقضائي والديني والعسكري والعقوبات التي توقع ضد من يتاجر في الرق كما تضمن هذا الفصل بنودا حول الرقيق المحرر وبناء المعسكرات ومحطات استقبال الرقيق المحرر ، ويتضمن الفصل الثاني بنودا خمسة تدور حول مراقبة طرق التجارة في الرق وكذلك الوسائل الواجب اتخاذها لمنع الاتجار في الرق وأيضا طرق تحرير الأفراد والارقاء .

وقد تصدرت المادة الأولى من قرارات هذا المؤتمر إعلان القوى الموقعة على هذا المؤتمر باتخاذ الوسائل الآتية للقضاء على الرقيق .

(١) التنظيم المستمر للخدمات الإدارية والقضائية والعسكرية للمناطق الأفريقية التي تدخل تحت حماية وسيادة الأمم المتحدة .

(٢) أن تقوم القوى المسئولة في كل منطقة بإنشاء محطات قوية بشكل تدريجي في الداخل وتكون مهمتها إتخاذ الإجراءات الفعالة لكبح وحماية عمليات صيد الرقيق في المناطق التي دمرت بسبب هذه التجارة.

٣) إنشاء الطرق وخصوصا السكك الحديدية التي تربط هذه المحطات المتقدمة بالساحل والعمل لسهولة الاتصال بالمياه الداخلية وإلى مجارى الأنهار ومنابعها والتي تفصلها الشلالات والجنادل وذلك لاحتلال وسائل نقل سريعة اقتصادية بدلاً من وسائل الحمل عن طريق الرجال .

٤) بناء القوارب التجارية على المجارى المائية الصالحة للملاحة وكذلك على البحيرات فى الداخل بشرط أن تساندها مراكز محصنة على الشواطئ .

٥) إنشاء الخطوط التاغرافية التي تضمن إتصال هذه المراكز والمحطات مع الساحل ومع المراكز الإدارية .

٦) تنظيم الحملات والطوابير المتحركة لاستمرار عملية اتصال المحطات مع بعضها البعض ومع الساحل بقصد مساندة الأعمال القمعية ولضمان سلامة طرق المواصلات .

٧) الحد من استيراد الأسلحة النارية أو على الأقل الأنماط الحديثة وكذلك الذخائر فى كل المناطق التي تأثرت بتجارة الرقيق .

كما جاء فى المادة الثالثة أن تتعهد القوى التي تمارس حق السيادة أو الحماية فى أفريقيا بالعمل تدريجيا كلما سمحت الظروف لكى تؤكد وتدقق فى قراراتها السابقة وذلك بالوسائل السالف ذكرها أو أى وسيلة أخرى مناسبة تهدف إلى القضاء على تجارة الرقيق داخل منطقتها الخاصة وتحت إشرافيا لنفس الفرض وبهدف إنساني محض .

كما نصت المادة الخامسة على ان تتعهد الدول الموقعة على مرسوم المؤتمر بتطبيق القوانين الواردة به وأن تصدر التشريعات الخاصة بوضع عقوبات على الأشخاص الذين يشتركون فى القبض على الرقيق بالعنف ، ونصت المادة السادسة علي أن الرقيق المحررين نتيجة توقف أو مصادرة قوافل الرق داخل القارة سوف يعودون من جديد إذا سمحت الظروف إلى مناطقهم الأصلية .

وجاء فى المادة السادسة يتم إرسال الرقيق المحررين طبقاً للتوقف أو تشتت السفن فى داخل القارة إلى موطنهم الأصلي بقدر ما تسمح به الظروف وإذا تعذر ذلك تقوم السلطات المحلية بمساعدتهم فى الحصول على وسائل الرزق إذا رغبوا فى الإقامة فى نفس المناطق .

وجاء فى المادة السابعة أن أى هارب يطلب من الدول الموقعة على هذا المرسوم حمايته فعليها أن تلبى طلبه ، وان تستقبله داخل المعسكر أو المحطات التى أنشئت لهذا الغرض على ظهر السفن الحكومية ويجب على الحكومات التى توافق على هذا الإتفاق أن تباشر مسؤولياتها نحو حماية الرقيق المحررين ، وان تكفل لهم سبل الحياة الكريمة .

وبدأت الدول الأوروبية ابتداء من القرن التاسع عشر وضع مبادئ تحريم الرق موضع التنفيذ ، فى عام ١٧١٦ تأسست جمعية الاستعمار الامريكية، ومنذ تاسيسها أخذت على عاتقها مسؤولية نقل الرقيق المحررين إلى ليبيريا ، ولم يكن الدافع إلى ترحيل هؤلاء الرقيق إنسانياً وإنما كان الدافع الحقيقي هو أن كثيراً من الرقيق نالوا حرقتهم بسبب موت أسيادهم فى الولايات المتحدة فى أوائل القرن التاسع عشر وكان ملاك الرقيق يكرهون أن يجدوا فى أرضهم رقيقاً يتحولون وهم أحرار من كل سلطان فيحرصون بنى جنسهم من الرقيق على التطلع إلى الحرية وهو شئ لا يتفق أصحاب المزارع الواسعة .

وفى عام ١٨١٩ قررت الحكومة الأمريكية إعطاء البحرية الأمريكية إعطاء البحرية الأمريكية حق تفتيش السفن فى البحار بحثاً عن الرقيق وأن تطلق سراحهم وتعيدهم إلى أفريقيا مرة أخرى.

ونسقت جمعية الاستعمار الأمريكية جهودها مع الحكومة وأرسلت بعثة لاستكشاف مدى صلاحية شواطئ ليبيريا للتعمير ، وحصلت الجمعية فى عام ١٨١٩ على مرسوم حكومى بإنشاء مستعمرة ليبيريا على مثال سيراليون _ لكن الحرب الأمريكية التى استمرت أربع سنوات من عام ١٨٦١ - ١٨٦٥ عاهدت تحرير الرقيق بسبب ارتباط الجنوبيين بالرقيق وتجارته، ولكن رغم ذلك فقد استطاع أعضاء البعثة شراء قطعة من الارف فى ليبيريا وأخذت السفن تجلب الرقيق المحرر إلى هذه المنطقة ، وأخذت ليبيريا تستقبل جموع الرقيق المحررين وقامت جمعية الاستعمار بإدارة شئون هذه الدولة الناشئة حتى منتصف القرن التاسع عشر فى عام ١٨٤٧ انسحبت الجمعية من هذه المهمة و أصبحت ليبيريا جمهورية زنجية مستقلة . وصار (جوزيف جنكر روبرت) أول رئيس لها، وفى عام ١٨٥٧ انضمت اليها ولاية ماريلاند، وفى أقصى مقاطعات ليبيريا جنوباً، وفى عام ١٨٦٠ اعترفت الولايات المتحدة بها رسمياً .

أما الرقيق المحررين فى بريطانيا وممتلكاتها فقد أنشئت أول مستوطنة أفريقية فى سيراليون وهى مستوطنة ترتبط إرتباطاً وثيقاً بقصة الرق فى بريطانيا حيث ترتب على حكم القاضى مانسفيلد فى عام ١٧٧٢ أن عدد كبير من الخدم الزوج تجاوز أربعة عشر الفا هاموا على وجوههم فى طرقات وشوارع لندن دون عمل ، مما ترتب عليه بطالة وجوع ومرض، وبذلك ظهرت مشكلة تحتاج إلى حل ، وهنا أحس جرانقافل شارب بمسئوليته فسارع بالإضمام إلى لجنة تكونت بعد ذلك من رجال الأعمال فى لندن ١٧٨٦ وعرفت هذه اللجنة باسم لجنة إغاثة السود ونشرت نداء فى الصحف لجمع التبرعات لتحسين أحوال السود ، ونجم عن هذا النداء جمع مبلغ ثمانمئة جنية فى شهر قلائل .

وفى عام ١٧٨٦ تقدم دكتور هنرى سميثمان (Henry smeachman) بمشروع لإقامة مستوطنة فى شبه جزيرة سيراليون لإيواء الزوج فى بريطانيا واقتتعت لجنة السود بهذا الإقتراح وعرضته على وزارة الخزانة البريطانية التى وافقت عليه ، وتكلفت بدفع الأموال اللازمة لنقل الرقيق إلى سيراليون ، وبالفعل تم جمع كل العبيد المتسولين من الطرقات والشوارع وأمكن شحن سفينتين ، وقد وصلت القافلة إلى تشارف (Teneriffe) إحدى جزر كناريا من مايو ١٧٨٧ ، وبعد أسبوع قضته هناك واصلت سيرها إلى خليج فرمشمانز (Frenchman's Bay) عند مصب سيراليون .

وفى عام ١٧٩٠ نجح جرانفل شارب وزملاؤه فى تأسيس شركة عرفت باسم رابطة سان جورج بهدف تشجيع وتنشيط التجارة المشروعة مع ساحل غرب أفريقيا . وفى ١٧٩١ زاد عدد مؤسسي الجمعية حتى بلغوا مائة عضو وطالبوا البرلمان بإصدار قرار تأسيسى الشركة .

وعرض المشروع على مجلس العموم، وصدر القانون بتأسيس شركة سيراليون فى السادس من يونيه ١٧٩١ وحلت محل الشركة السابقة وفى ١٥ يناير ١٧٩٢ حملت السفن المهاجرين حوالي ١١٣١ فردا ومات أثناء الرحلة ٥٦ رجلا .

واستمرت الشركة تباشر عملها ولكن بسبب الخسائر الفادحة بدأت المحاولات فى عام ١٨٠٣ لإقناع الحكومة بتولى أمور سيراليون ، وأرسلت لجنة برلمانية للتحقيق فى خسائر الشركة وأوصت هذه اللجنة بنقل إدارة المستوطنة إلى الحكومة ووافق البرلمان بالفعل على صرف المبالغ

اللازمة لإقامة المزيد من التحصينات ، وفى أوائل عام ١٨٠٧ صدر قانون بتحويل المستوطنة إلى مستعمرة للتاج وحلت شركة سيراليون ورفع العلم البريطاني على المستوطنة وهكذا صارت سيراليون مستعمرة بريطانية وانتهت قصة الرق داخل بريطانيا بعد صدور قرار إلغاء هذه التجارة فى الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار، وصار امتلاك العبد محرماً فى أى جزء من الممتلكات البريطانية فى عام ١٨٣٣.

آثار تجارة الرقيق على المجتمعات الأفريقية

من الصعوبة أن نضع تقديراً دقيقاً لتعداد الرقيق الذين صدروا من غرب أفريقيا عبر الأطلنطي، فمن المعتقد أن تعداد من وصلوا منهم إلى أمريكا يتراوح ما بين ١٥ - ٢٠ مليون نسمة، ولما كان كل عبد يصل حياً إلى أمريكا يموت إلى جانبه عبد آخر خلال الرحلة نتيجة عدم ملاءمة السفن التي حملتهم من الناحيتين الصحية والإنسانية، فإن معنى ذلك أن إقليم غرب أفريقيا فقد ما يتراوح ما بين ٣٠ - ٤٠ مليوناً من سكانه خلال القرون الثلاثة التي ازدهرت فيها تجارة الرقيق، وكان هذا النزيف السكاني بالغ الأثر فى مناطق بعينها. كما أن المكاسب الباهظة التي حققها الحكام المحليون من وراء الإتجار بالرقيق ، جعلتهم يهملون الزراعة والصناعة فقد كان الحصول على المنتجات المصنعة الأوروبية أمراً سهلاً، وتدهورت نتيجة لذلك الصناعات اليدوية الأفريقية، وأدت حملات صيد العبيد والحروب الأهلية إلى القضاء على الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي.

وهناك العديد من الأمثلة على فظائع تجارة الرقيق، ففي عام ١٧٨١ عانت ناقلة العبيد الإنجليزية ZONG من نقص كبير فى مياه الشرب وهى فى عرض البحر، فقام ربانها بإلقاء ١٣٢ عبداً فى المحيط وماتوا غرقاً، لأنه عندئذ يضمن الحصول على قيمة التأمين الذي يغطى أخطار الغرق، أما إذا مات العبيد عطشاً فإن الشركة المالكة لهم لا تحصل على أى تعويض كما أن ثمة مثال لطبيعة التعامل فى تلك التجارة نجده فى سجلات ريان إحدى السفن الإنجليزية عام ١٦٧٦ ، الذي يقرر أنه اشترى مائة عبد من الرجال والنساء والأطفال، مقابل ٢١ قضيماً من الحديد وخمس بنادق و ٧٢ سكيناً، نصف برميل من البارود، وبعض القطع من الأقمشة القطنية.

وإذا كانت تجارة الرقيق قد أدت إلى إزدهار بعض المدن الساحلية التي كانت مراكز لتلك التجارة، فإن ذلك الإزدهار جاء على حساب دمار إضمحلال المدن الداخلية التي كانت مراكز التجارة المنطقة فيما قبل الإتجار بالرقيق. وإذا كان بعض الكتاب الأوروبيين يرون أن ثمة جانب إيجابي تعكسه تجارة الرقيق تمثل في تعرف الأفارقة على الأوروبيين، وإيفاد الزعماء المحليين أولادهم إلى العواصم الأوروبية لتلقي العلم، فإن ذلك كله كان لمصلحة الأوروبيين أنفسهم الذين كانوا بحاجة إلى كوادر) إدارية محلية فشجعوا الزعماء المحليين على إيفاد أولادهم إلى أوروبا للدراسة، حتى يهيأوا لإدارة بلادهم لحساب الاستعمار في مرحلة تالية.

الخرائط





طرق انتشار الإسلام في أفريقيا





أفريقيا أواخر القرن ١٩م



أفريقيا ١٩١٤م

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- أحمد طاهر: أفريقيا- فصول من الماضي والحاضر. دار المعارف. مصر، ١٩٧٥م.
- جلال يحيى: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر؛ المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ١٩٩٩.
- _____: مصر الافريقية والاطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر، دار المعارف ، مصر ١٩٦٦.
- جون هاتش: تاريخ أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية، ترجمة فتحي العشري" دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٩م.
- روف عباس حامد: تاريخ أفريقيا الحديث، زاهر رياض: استعمار أفريقيا دار المعارف، مصر، ١٩٦٦م.
- _____: استعمار القارة واستغلالها: القاهرة، ١٩٦٦م.
- السيد يوسف نصر: الوجود المصري في أفريقيا في الفترة من ١٨٦٠ إلى ١٨٩٩، دار المعارف، ١٩٨١م.
- شوقي الجمل: كشف القارة الإفريقية واستعمارها، مكتبه الانجلو المصرية. ط٢، القاهرة، ١٩٨٠م.
- صلاح الدين حافظ: صراع القوي العظمي حول القرن الافريقي، سلسله عالم المعرفة، الكويت، د.ت.
- عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب افريقيا، القاهرة، ١٩٦٥م.
- عبدالله عبدالرازق، شوقي الجمل: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ط٢، دار الزهراء، الرياض، ٢٠٠٢م.
- فيصل محمد موسى: موجز تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر: منشورات الجامعة المفتوحة ، ليبيا، ١٩٩٧.
- فرغلى على تسن: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، العلم والإيمان للنشر، اسكندرية، ٢٠٠٨م.

- محمد عبد العزيز إسحاق: نهضة أفريقيا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١م.
- محمد عوض محمد: الاستعمار والمذاهب الاستعمارية، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ميلاد القرصي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عصر النهضة الى الحرب العالمية الثانية الجامعة المفتوحة ليبيا. ١٩٩٥م.
- يسري الجوهري: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشاه المعارف بالاسكندرية، ط١٩٧٦، ٣م.